خليل خلايلي



جذوع السنديان وعروق الأقحوان

دراسة

جذوع السنديان وعروق الأقحوان

قراءات في الأدب العربي القديم والمعاصر

خليل خلايلي

جذوع السنديان وعروق الأقحوان

قراءات في الأدب العربي القديم والمعاصر

من منشورات اتحاد الكتاب العرب

2000

البريد الالكتروني: E-mail : unecriv@net.sy

الإنترنت : Internet : aru@net.sy

موقع اتحاد الكتّاب العرب على شبكة الإنترنت

www.awu-dam.com

تصميم الغلاف للفنانة: نسرين مقداد

□□

الشجرة.... دائماً

تقديم:
الدكتور أحمد زياد محبك

التقيته في دمشق، فسألني أن أكتب هذه المقدمة، وكنا في حفل لتوزيع جوائز مسابقة أدبية باسم الأديب ماجد أبو شرار، ثم همس لي: أرجو أن تعجَل قليلاً، قبل أن يوافيني الأجل.

*

موقف لاأنساه، يتلخص فيه كل شيء، كأنه مركز الدائرة، ومن حوله تدور الأشياء كلها.

دمشق الشام، أرض الحضارات، ومعقل العروبة، وقلعة الصمود، مهوى الأفئدة، وجنة الدنيا، هي مكان اللقاء.

وهو وأنا، نحن معاً، العربيان من فلسطين ومن سورية، نلتقي في دمشق، تحت لواء الكلمة، حباً وانتماء إلى العروبة والإبداع.

واللقاء في حفل، بل في كفاح، بالكلمة والدم، باسم شهيد قاتل بكلمته وسلاحه، فاستشهد والكفاح من بعده مستمر، يؤكد ذلك أدباء مناضلون، يكتبون للحرية وفلسطين والعروبة، ثم يلتقون ليقولوا: هانحن أولاء من بعدك، نقاتل ونكتب فاطمئن نفساً، مازلنا نعمل.

ولكن يبقى في النفس شيء يودّ المرء لو يقوله، لو يفعله، قبل أن يدركه الموت. تلك هي فسحة العمر، مهما امتدّ، تبقى الآمال أكبر، وتلك هي الحياة، في قوتها وعطائها، وماتزال كلماته تنبض: قبل أن يوافيني الأجل.

وأنا أيضاً، أعدّ ثلاثة كتب، أودّ دفعها إلى المطبعة في آن، كذلك، قبل أن يوافيني الأجل.

ليس عن ضعف ولا عجز ولا مرض، وإنما عن قوة، وإرادة في العمل، وعزم على إنجاز شيء وتقديمه إلى الآخر.

وهذا هو الصراع بين ماهو آنيّ عابر مؤقت، وماهو خالد دائم، بين ماهو يومي يستهلكه الوقت والفرد، وماهو أبدي يبقى للأجيال.

هو الكفاح معاً من خلال الأجيال والأمة كلها لنفي الجهل والتخلف والمرض والفقر والقهر والظلم، وبناء ماهو نقيض ذلك كله.

وإلا، فما معنى أن يطلب مني هذه المقدمة؟

هي الرغبة الجميلة في اللقاء مع الآخر، في الحديث إليه، في التواصل معه، في تأسيس ماهو حي، في صنع ماهو إنساني، في بناء ماهو خالد.

ولأجل هذا استجبت إليه، ولأجل هذا نعيش، لأنه لن يبقى شيء، سوى الكلمة حباً وعلماً وانتماء.

والخليل في هذا الكتاب يذكرني ببعض الشعراء العرب، في القديم والحديث، أمثال صلاح عبد الصبور وابن سناء الملك والمعري وعبد الله بن المعتز والبحتري وأبي تمام.

فلقد اختار أبو تمام مجموعة أشعار أسماها "الحماسة"، في إثره سار البحتري، فاختار حماسة أخرى، وألّف ابن المعتز كتاب طبقات الشعراء، وألّف المعري كتباً كثيرة منها "رسالة الغفران"، ووضع ابن سناء الملك كتاباً في فن الموشح أسماه "دار الطراز في عمل الموشحات"، وألّف عبد الصبور مجموعة كتب نقدية، منها كتابه الجميل: "في مدينة العشق والحكمة".

وكل أولئك شعراء يؤلفون في الأدب والنقد والشعر، ولئن دلّ هذا على شيء فإنما يدلّ على أن الشعر لايقوم على الموهبة والخبرة فحسب، بل لابد له من ثقافة أيضاً.

ويؤكد ذلك كثير من الشعراء، وضعوا كتباً في الأدب والنقد، بل إن بعض المعاصرين منهم حاز شهادات عليا، أمثال: خليل حاوي وعبد العزيز المقالح وعبد الإله الصائغ.

وإذن فالثقافة للشاعر خبرة جديدة، لابدّ منها، من أجل التجديد، وليعرف

الشاعر موضعه من تاريخ الأدب، وليكون له دوره في هذا التاريخ.

*

والخليل في هذا الكتاب، وهو الشاعر، يعرّف بعض الأدباء والشعراء من التراث العربي، فيتكلّم عليهم، وكأنّه يتكلم على الجد، تقديراً وولاءً وحباً، ويتكلّم على إبداعهم، فكأنه يتكلم على إرث ممتد حرصاً وتقديراً وحسن فهم، وهو بذلك يربط الأجيال، بعضها ببعض، مؤكداً الحاجة إلى الماضي، من أجل معرفة الحاضر، وبناء المستقبل، فمن الماضي يستمد النسغ، كي تمتد في الحاضر أغصان العطاء، فتثمر، وتظل تثمر، للحاضر والمستقبل.

والخليل[1] يكتب بحسّ الشاعر، وروح العربي، وحسّه المناضل، وإبداعه المتألق شعراً ونثراً، وجذره المنغرس أبداً في أرض جسكالا[2]بفلسطين العربية، وأغصانه الممتدة من دمشق إلى سائر أرجاء الوطن العربي، مثله مثل الحضارة العربية، الممتدة أبدا، والباقية أبداً.

*

حلب في 1998/12/24

□■□■

---

[1] كان اللقاء في مقر اتحاد الكتاب العرب بدمشق، يوم 1998/10/17 في حفل توزيع جوائز مسابقة ماجد أبو شرار، وهو أديب ومناضل ولد عام 1934 في قرية "دورا" بالخليل في فلسطين واغتيل في روما في 1981/10/9.

[2] جسكالا: قرية بفلسطين، ولد فيها الشاعر خليل خلايلي، عام 1933، وله كتاب عنها.

جذوع السنديان

- *يزيد بن مزيد الحميري*
- *الأحوص الأنصاري*
- *أبو الشيص الخزاعي*
- *أبو العلاء المعري*
- *أسامة بن منقذ الشيزري*
- *الشهاب السهروردي*
- *ظاهر العمر الزيداني*

قراءات نقدية في الأدب العربي القديم

□■□■

يزيد بن مزيد الحميري

شاعر المزاج الحاد والهجاء المر

ما مررت يوماً برجل يحمل لحية كثة تحتل الصدر، وتتهاوى إلى الزنار، ثم تتطاير في كل اتجاه، إذا هبت عليها الريح، إلا ضحكت في سري من أعماقي، وتذكرت بيت الشاعر "يزيد بن مزيد الحميري" الذي يقوله في لحية أميره "عباد بن زياد بن أبيه" أمير سجستان لأخيه "عبيد الله بن زياد" الذي كان أميراً على خراسان كلها، ثم أميراً عل البصرة بعد فصل ولاية خراسان عنها وإسناد إمارتها لسعيد بن عثمان بن عفان في زمن الخليفة "معاوية بن أبي سفيان" وفي زمن ولده "يزيد بن معاوية" وكان ابن مزيد قد صحب "عباداً" وسار معه إلى سجستان على أمل العطاء وحسن المعاملة، ورفض دعوة سعيد بن عثمان الذي حاول اصطحاب الشاعر فيمن اصطحب من الشعراء وأهل الرأي على عادة أمراء ذلك الزمان الذين كانوا يستأنسون بصحبة الشعراء ليمدحوهم ويذيعوا فضائلهم بين الناس، وليلهبوا أحاسيس المقاتلين بأشعارهم وقصائدهم إذا شبت نار الوغى، واستعر أوارها على جبهات القتال، وقد تطول الصحبة بين الأمير والشاعر أو تقصر، حسب الظروف وحسب مايقدمه كل منها للآخر، وقد يحدث مايكدر الصفو ويعكر الصفاء فيقلب كل منهما للآخر ظهر المجن، فإذا بالفضائل تتحول إلى مثالب على الألسنة، وإذا بالمديح هجاء جارح يستوجب العقاب والحبس، وقد يقود إلى موت الشاعر ذبحاً بحد السيف، أو صبراً في غياهب السجون.

هذا بالضبط ماحصل بين ابن مزيد وأميره "عباد" فقد تشاغل عباد بالفتح والقتال أثناء صحبته لابن مزيد وتباطأ رفده وعطاؤه عن الشاعر الذي كان قليل

الصبر ضيق العطن، فبادر بهجاء أميره هجاءً مراً، يثير الحفيظة ويذهب بالألباب.

وبدأ الهجاء أول مابدأ بالبيت والبيتين من الشعر، ثم إذا به يستوي قصائد كاملة تنضح شتماً مؤلماً جارحاً، تتناول "عباداً" في عرضه وحسبه ونسبه وترتفع لتطال الخليفة (معاوية بن أبي سفيان) وأباه وجده، سيما وأن زياد بن أبيه كان ملصقاً بنسب أبي سفيان إلصاقاً وكان يعرف بـ"زياد بن سمية" ليس غير. وكان من شأن تلك القصائد أن أثارت عجاجة كدرة كادت تشعل أوار فتنة كبرى بين اليمانية رهط الشاعر، وبين آل زياد الأمراء المنتسبين إلى بني عبد شمس، فقد أصر الأمير على قتله، وإزهاق روحه، فمنعه يزيد وسارع بحكمته فأطفأ لهيب الفتنة المستعر، ونصر الشاعر على الأمير، بعد أن حذره من العودة إلى ذم آل زياد وهجومهم، فكيف حصلت الفتنة بين الرجلين؟.

قلنا: إن ابن مزيد قد صحب "عباداً" إلى سجستان، وكان من المفروض آنذاك على الشاعر أن يسير في موكب أميره، ويسايره أنى ذهب، وإذا شغلت بال الأمير مشاغل الإمارة وقضايا الناس ومشكلات الفتح جعلته ينسى الشاعر في زحمة تلك المشاغل، فيضيق الشاعر ذرعاً بذلك وينفث نفثة من لسانه فتصل إلى أسماع عباد فيضمر له الشر كل الشر.

وكانت مناسبة تلك النفثة أو ذلك البيت الملعون من الشعر، أن داهم سجستان الجفاف في إثر انحباس المطر فقل الكلأ والمرعى وجاعت الخيل وهزلت، وفيما كان "عباد" يركب بجماعة من الفرسان، صهوات تلك الخيول الهزيلة المضحكة، ذات يوم هبت الريح فتناثرت لحية "عباد" فتضاحك "ابن مزيد" من المنظر وقد آلمه الحال والهزال فقال:

ألا ليت اللحى كانت حشيشاً فنعلفها خيول المسلمينا

فسمعه رجل من لخم فسعى به إلى "عباد" فغضب غضباً شديدا وقال: "لايجمل بي عقوبته في هذه الساعة مع الصحبة لي، وما أؤخرها إلا لأشفي نفسي منه لأنه كان يقوم فيشتم أبي في عدة مواطن، وبلغ الخبر ابن مزيد فقال: "إني لأجد ريح الموت من عباد" وكان ابن مزيد قال فيما قاله من الهجاء قوله:

ألا أبلغ معاوية بن حرب مغلغلة من الرجل اليماني

أتغضب أن يقال أبوك عف وترضى أن يقال أبوك زان

فاشهد أن رحمك من زياد *كرحم الفيل من ولد الأتان*

واشهد أنها ولدت زياداً *وصخر من سمية غير دان*

وقوله في "عبيد الله بن زياد" ماقال فيه "ابن زياد" نفسه: ماهجيت بشيء أشد علي من قول ابن مفرغ:

فكر، ففي ذلك إن فكرت معتبر *هل نلت مكرمة إلا بتأمير*

عاشت سمية ماتدري وقد عمرت *أن ابنها من قريش في الجماهير*

أو قوله:

فأقسم مازياد من قريش *ولا كانت سمية من تميم*

ولكن نسل عبد من بغي *عريق الأصل في النسب اللئيم*

إلى ماهنالك من هجوٍ يضيق عنه المقال.

ردة فعل عباد:

أضمر عباد الشر في نفسه وجعل يتحين الفرص للإيقاع بابن مفرغ، وأخذ يطلب عليه العلل فدس إلى قوم كان لهم عليه دين، فأمرهم أن يقدموه إليه، ففعلوا فحبسه وضربه، وباع سلاحه وفرسه وأثاثه وقسم الثمن بين الغرماء، وبقي عليه بقية من دين حبسه بها. ثم رق له "عباد" فأخرجه من السجن، فهرب من سجستان حتى أتى البصرة، ثم خرج منها إلى الشام، وجعل يتنقل في مدنها هاربا ويهجو زياداً وولده، ثم لج في هجاء بني زياد حتى تغنى أهل البصرة في أشعاره. فطلبه عبيد الله طلباً شديداً حتى كاد يؤخذ فلحق بالشام، فكتب عبيد اللـه إلى معاوية وقيل: إنه كتب إلى يزيد يقول: إن ابن مفرغ هجا زياداً وبني زياد بمًا هتكه في قبره وفضح بنيه طول الدهر وتعدى ذلك إلى أبي سفيان، فقذفه بالزنى وسب ولده، فهرب من خراسان إلى البصرة، وطلبته حتى لفظته الأرض فلجأ إلى الشام يتمضغ لحومنا ويهتك أعراضنا وقد بعثت إليك بما هجانا به لتنتصف لنا منه.

فأمر يزيد بطلبه فجعل ينتقل من بلد إلى بلد، حتى لفظته الشام وأتى البصرة.. وطلب جوار بعض علية القوم فأجاره "المنذر بن الجارود" أبو زوجة

عبيد اللّه، ولم يقبل عبيد اللّه إجارة حميه، فأرسل الشرطة فكبسوا داره، وأتوه بابن مفرغ، فرماه في السجن وكتب إلى يزيد بن معاوية يسأله أن يأذن له في قتله فكتب له يزيد "إياك وقتله ولكن عاقبه بما ينكله ويشد من سلطانك ولاتبلغ نفسه، فإن له عشيرة هي جندي وبطانتي، ولاترضى بقتله مني، ولا تقنع إلا بالقود منك، فاحذر ذلك واعلم أنه الجد منهم ومني، وإنك مرتهن بنفسه ولك من دون تلفها مندوحة تشفي من الغيظ".

محنة ابن مفرغ:

لما ورد كتاب يزيد على عبيد اللّه بن زياد أمر بابن مفرغ فسقي نبيذاً حلواً قد خلط معه "الشبرم" وهو نبات مسهل، فأسهل بطنه، وطيف به وهو في تلك الحال مقروناً بهرة وخنزير فجعل يسلح والصبيان يتبعونه ويصيحون به، وألح به الإسهال حتى أضعفه فسقط وقيل: "إنه لما به لانأمن أن يموت" فأمر عبيد اللّه بغلسه ورده إلى الحبس فلما اغتسل قال:

يغسل الماء ما فعلت وقولي	*راسخ منك في العظام البوالي*

واتصل هجاؤه زياداً وولده وهو في الحبس فرده عبيد اللّه إلى أخيه "عباد" بسجستان ووكل به رجالاً ووجههم معه، وكان لما هرب من عباد يهجوه ويكتب ذلك على حيطان الخانات، فكانوا يأمرونه بمحو ماكتبه على الحيطان بأظافره، حتى ذهبت أظافره، فكان يمحو بعظام أصابعه ودمه.

فقال يصف حاله:

ألا طرقتنا آخر الليل زينب	*سلام عليكم هل لما فات مطلب*
أصاب عذابي اللون فاللون شاحب	*كما الرأس من هول المنية أشيب*
وجرعتها صهباء من غير لذة	*تصعد في الجثمان ثم تصوب*
وأطعمت ماإن لايحل لأكل	*وصليت شرقاً بيت مكة مغرب*

ثم ينتقل لهجاء عباد وعبيد اللّه فيقول:

أعباد ما للؤم عنك محول	*ولا لك أم في قريش ولا أب*
سينصرني من ليس تنفع عنده	*رقاك وقرم من أمية مصعب*

وقل لعبيد اللّـه مـالك والـد　　　بحق ولايدري امرؤ كيف تنسب

ولما طال لبثه في السجن، استأجر رسولاً إلى دمشق ليبلغ اليمانيـة مـاجرى له فحميت اليمانية وغضبوا له، ودخلوا على "معاوية" أو على "يزيد" فسـألوه فيه فدفعهم عنه، فقاموا غضاباً وقد عرف ذلك في وجوههم، فردهم ووهبه لهم، ووجه رجلاً من بني أسد يقال له "خمخام" وكتب له عهداً وأمره أن يبدأ بالحبس فيخرج ابن مفرغ ويطلقه قبل أن يعلم عباد بذلك فيغتاله، ولما خرج من السجن قربت له بغلة من بغال البريد، فركبها ولما استوى على ظهرها أنشد:

عـدس مالعبـاد عليـك إمـارة　　　نجوت وهـذا تحمليـن طليـق

فإن الذي نجى من الكرب بعدما　　　تلاحم في درب عليك يضيـق

أتـاك بخمخـام فأنجـاك فـالحقي　　　بـأهلك لاتحبـس عليـك طريـق

لعمري لقد أنجاك من هوة الردى　　　أمـام وحبـل للأنـام وثيـق

سأشكر ماأوليت من حسن اللقى　　　ومثلـي بشكر المنعميـن حقيـق

ويذهب خبر ابن مفرغ في الأغاني متشعباً ويسلك أكثر مـن طريـق، ويضيف الرواة ماطاب لهم أن يضيفوا من الأخبار ولكنها كلها تشير إلى أن يزيد قد أنقذه من حبس ابن زياد وأمره أن يكف عنهم وسمح له أن ينزل حيث شاء، فنزل الموصل ولكن هيهات لمثله أن يستقر في مكـان فها هو ذا يعاود الرحيل إلى البصرة فالأهواز ليزور عشيقة له يقال لها "أناهيد بنت أعنق" ثم يخرج ليقيم بكرمان ويظل فيها إلى أن غلب ابن الزبير على العراق وهرب ابن زياد منها وكان أهل البصرة قد أجمعوا على قتله، فعاد ابن مفرغ إلى البصرة وعاود هجاء بني زياد وقد أصبح آمناً منهم بعد أن فتكت بهم سيوف أصحاب المختار، وقيل إن الذي قتل عبيد اللّه هو إبراهيم بن الأشتر، ضربه بالسيف فقده نصفين فشرقت يداه وغربت رجلاه وفاح منه ريح المسك.

وفي الختام:

تلك هي قصة الشاعر يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري الذي قيل إن أباه كان شعاباً في تبالة وتبالة بلدة صغيرة من بلاد اليمن تقع علـى مقربة من بيشة وتختفي خلف تل صغير وقيل إن الحجاج قد وليها أول ماولي وجاءها بجماعته

ولما اقترب منها سأل الأولاد:

أين هي تبالة؟ فقيل له: هي وراء ذلك التل فأجاب: ماكنت لألي بلدة يخفيها عني تل وعاد من حيث أتى، وقيل إن ربيعة بن مفرغ أبا يزيد كان شعاباً في المدينة وليس في تبالة.

والشعاب هو الطيان الذي يسد الشق في الجدار إذا انصدع، وهذا ماجعل بعضهم ينفي عن الشاعر أصالته في حمير ويدعي أنه حميري في الولاء فقط وليس ذلك صحيحاً فيما أرى والدليل على صحة نسبه في حمير هو غضب اليمانية كلها له، وسعيها لدى الخليفة يزيد لإطلاقه من السجن، ولو لم يكن ذا نسب واضح صريح فيهم لما اهتم به أحد.

أما جده (مفرغ) بضم الميم وفتح الفاء وكسر الراء مع تشديدها فقد لقب بذلك لأنه راهن على سقاء لبن أن يشربه فشربه كله حتى فرغ فسمي بذلك مفرغاً.

وعادة الرهان على شرب القرب المملوءة لبناً أو سمناً أوعسلاً مازالت شائعة في جبال اليمن وجبال السرّاة حتى يومنا هذا وكم من رجل يضرب به المثل بأنه شرب عس السمن أو اللبن أو العسل بكامله مرة واحدة وهم يفاخرون بذلك لأنه يدل على القوة.

وإذا بلغنا في سرد قصة الشاعر وخصومه من الأمراء إلى نهايتها لايسعنا إلا أن نستمطر شآبيب الرحمة على أرواحهم جميعاً ظالمين، ومظلومين شعراء أو أمراء، أصحاب لحى طويلة كانت أم قصيرة أو كانوا بدون لحى فقد غيبهم الدهر وأصبحت أخبارهم أحاديث الأشعار وتسلية السمار، ولايليق بنا وبهم والحالة هذه إلا أن نترحم عليهم ونطلب لهم الصفح والغفران.

□■□

الأحوص الأنصاري

شاعر اللهو والمجون

شيطان من شياطين الشعر، وفحل من فحول الشعراء، ورائد من رواد التجديد، وعلم من أعلام الغزل، وقمة من قمم الغناء واللهو والمجون، لم يعرف الراحة في حياته قط، بل قاده شعره ونبوغه إلى مهاوي الرذيلة حيث الخمرة والسكر والعربدة والفضائح والمجون والتطاول على أولي الأمر من قضاة وولاة وخلفاء، أما لسانه السليط الحاد ونفسه الشريرة الثائرة والمغلوبة على أمرها والإحباط المرير الذي كان يستوطن فيه، كل ذلك كاد يودي به إلى التهلكة، فضرب وشهر به وعذب وأقيم على البُلُس في المدينة، ثم نفي إلى أقصى الأرض، إلى جزيرة (دهلك) في البحر الأحمر بين إفريقيا واليمن.

ورغم كل مالاقاه من عذاب وتشريد، فقد كان ثاني اثنين نهضا بالغزل في العصر الأموي هو وعمر بن أبي ربيعة، فكانت قصائده ومقطوعاته الغنائية محط أنظار الشعراء، ومثار اهتمام العامة والخاصة، وكان له فضل كبير في تعميم لغة الغزل في المدينة وباقي الأمصار كالشام والعراق، حتى غدت أغانيه الحلوة على كل لسان، وكان لتجديده في موضوعات القصيدة الغزلية ووحدة الموضوع فيها، أثر كبير في النهضة الغنائية التي عرفها العصر العباسي فيما بعد، أما غزله في الإماء والجواري والمغنيات فكان مثالاً يحتذى حتى افتتن به أبو الفرج الأصفهاني واختار له عشرة أصوات بكاملها في كتابه الأغاني.

فمن هو هذا الشاعر الذي ملأ الدنيا وشغل الناس؟

اسمه وصفته:

هو عبد اللّه بن محمد بن عاصم الأنصاري، كنيته أبو محمد ولقب (بالأحوص) لضيق في مؤخرة عينيه، وكان أحمر كأنه (وَحَرة) والوحرة يعسوب أحمر ينزل الأنبار.

وكان قصيراً دميماً ونحيفاً، وقد اعترف هو بنحافته في قوله:

وقالوا قد نحلت وكنت جلداً وأيسر ماامنيت به النحول

مولده:

ولد في (قباء) سنة 35هـ السنة التي قتل فيها الخليفة (عثمان بن عفان) وهي قرية تبعد ميلين عن المدينة على يسار الذاهب إلى مكة، وكانت فيها مساكن بني عمرو بن عوف وهم رهطه الأدنون، وفيها نشأ وعلى مسرحها دارت فصول عديدة من حياته وكانت محط أنظار القاصدين إليه، وفيها زاره كل من جرير والفرزدق حيث اصطحبهما إلى مجالس اللهو والخمر والغناء في المدينة، وقد ذكرها في شعره إذ قال:

ألمت بعثر من قباء تزورنا وأنى قباء للمزاور من عثر

بيئته ونشأته:

قيل عنه: (إنه لم يدخل بادية قط) بل قضى طفولته في المدينة وغذي بماء (العقيق) والعقيق منتزه أهل المدينة، ويقع قبالة (قباء) على بعد ميلين من الجهة الجنوبية الغربية للمدينة، وإليه تنحدر السيول من الجبال، فكان كثير النبت والشجر ومنتدى الناس ومتصيدهم وكان منتزها فريداً ينشد فيه الغناء، وقام فيه الندوات الخاصة للشعر، كما كانت تقصده شريفات ذلك العصر ليمرحن وليأخذن قسطهن من اللهو.. في حين كان ينزوي بعض زوار العقيق تحت نخيله ليشربوا ويعبثوا بعيداً عن أعين الناس.

وبالطبع كان (الأحوص) أحد رواد هذا المنتزه الجميل، وقد قضى أوقاتاً طويلة على ضفاف مائه الجاري وبين رياضه المعشبة الأنيقة، وانتقل بين بساتينه وجنائنه الغناء، وانخرط كغيره من الناس في حلقات اللهو والعبث

والمرح التي كانت تقام هناك، واستمع إلى غناء المغنين وإلى قصائد الشعراء، وشارك فيها... وكثيراً ماكان يخرج إلى العقيق مع صاحبيه (كثير) و(نصيب) يركبون أفضل الدواب ويلبسون أحسن الثياب، ثم يتنكرون فيرون مايشتهون، ويستمتعون في جلسات سمر وغناء مع نساء برزات سافرات.

وهكذا نرى أن (العقيق) كان مكان لهوه ومرحه ومسرح عبثه وملتقى مغامراته العاطفية في شبابه.. فاسمعه يخاطب عقيلة قائلا:

هل تذكرين عقيل أو أنساكه ... بعدي تقلبُ ذا الزمان المفسد

يومي ويومك بالعقيق إذا الهوى ... منا جميع الشمل لم يتبدد

أسرته:

يرتفع (الأحوص) في نسبه إلى نبعة ثرة صافية من نبعات الأنصار فهو من رهط (عمرو بن عوف) من الأوس.

وإذا كانت المصادر قد أوردت القليل عن أبيه (محمد بن عاصم) وذكرت أنه زار الخليفة (معاوية بن أبي سفيان) هو وولده (الأحوص).. الذي ألقى كلمة في حضرة الخليفة وقام هو ليخطب فكفه ابنه (الأحوص) قائلاً له: (يا إياك قد كفيتك) فقعد.

كما ذكر أبو الفرج: إن والدة الأحوص هي (أثيلة بنت عمر بن مخشي) ولم يرد لها ذكر آخر.

إلا أن المصادر والمراجع وكتب السير والمغازي والطبقات تفيض في ذكر أخبار جده: (عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح) أحد نجوم الكوكبة الأولى من الأنصار، الذين كان لهم شأن معهم في رفع راية الدعوة الإسلامية عالياً والدفاع عنها في الحروب والغزوات التي خاضها وقدم دمه وحياته في سبيلها.

فقد أبلى عاصم بلاءً حسناً، فكان واحداً من الأوائل الذين فتحوا صدورهم وبيوتهم لاستقبال الوافدين عليهم من الحرم الشريف، إذ نزل عليه عبد اللّه وأبو أحمد ابنا جحش حين قدما مهاجرين من مكة إلى المدينة، و (عبد الله بن جحش) هو ابن عمة الرسول صلى الله عليه وسلم (أميمة بنت عبد المطلب) وقد آخى الرسول بينهما.

وعاصم بن ثابت من رهط ضبيعة بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف

بن مالك بن الأوس، وكان يقال لهم في الجاهلية (بنو كِسَرِ الذهب).

ووالدة عاصم هي الشموس بنت أبي عاصر الراهب، أخت حنظلة الغسيل. وأخته هي (جميلة بنت ثابت بن أبي الأقلح) وهي من المسلمات السابقات في الإسلام كان اسمها (عاصية) فسماها الرسول (جميلة) وتزوجها الخليفة عمر بن الخطاب سنة سبع للهجرة. فولدت له ذكراً أسمته (عاصماً) باسم أخيها الشهيد فهي أم عاصم وعاصم هذا هو جد عمر بن عبد العزيز لأمه.

أعمال عاصم في الدعوة إلى الإسلام:

تذكر المصادر أنه (لما كانت ليلة العقبة، أو ليلة بدر قال النبي صلى اللّه عليه وسلم لمن معه: "كيف تقاتلون؟ "فقام (عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح) فأخذ القوس والنبل وقال: "إذا كان القوم قريباً من مائتي ذراع كان الرمي، وإن دنوا حتى تنالهم الرماح كانت المداعسة حتى تتقصف، فإذا تقصفت وضعناها وأخذنا السيوف وكانت المجالدة" فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "هكذا نزت الحرب فمن قاتل فليقاتل كما قاتل عاصم".

وشهد عاصم بدراً مع النبي صلى اللّه عليه وسلم، وأبلى فيها بلاء حسناً، وفي معركة أحد أبلى عاصم أحسن البلاء أيضاً وثبت فيها إلى جانب النبي وبايعه على الموت، وقد امتدحه النبي صلى الله عليه وسلم لحسن بلائه إذ قال لعلي،رضي اللّه عنه، عندما رأى سيفه مخضباً بالدماء: "إن كنت أحسنت القتال فقد أحسن عاصم بن ثابت".

استشهاد عاصم بن ثابت حمّي الدبر:

استشهد يوم وقعة الرجيع في صفر في مطلع السنة الرابعة الهجرية. والرجيع ماء لهذيل بناحية الحجاز ينبع من صدور الهدا، وكان الرسول صلى اللّه عليه وسلم، قد أرسل عاصما مع نفر من أصحابه ليفقهوا في الدين بعض قبائل تلك النواحي، فغدر القوم بعاصم ورفقته واستصرخوا عليهم (هذيلا) فلم يشعروا إلا برجال في أيديهم وقد غشوهم، فقاتلوا حتى قتلوا.

فلما قتل عاصم أرادت (هذيل) أن تبيع رأسه لـ(سلافة بنت سعد بن شهيد) وكانت قد نذرت، حين أصاب ابنيها يوم أحد، أن تشرب الخمر في قحفه، فمنعته الدبر فلما حالت بينهم وبينها قالوا "دعوه حتى يمسي فنذهب فنأخذه"، فبعث اللّه

الوادي فاحتمل عاصماً فذهب به.

وكان عاصم قد نذر أن لا يمسه مشرك ولايمس مشركاً أبداً في حياته فمنعهم الله بعد وفاته.

وقد حزن الرسول صلى الله عليه وسلم على عاصم وأصحابه حزناً شديداً وبقي عليه الصلاة والسلام شهراً يلعن رعلاً وذكوان وبني لحيان... ورثاه حسان بن ثابت بقوله:

هم قتلوا يوم الرجيع بن حُرّة	*أخا ثقة في وده وصفاء*
فلو قُتلوا يوم الرجيع بأسرهم	*بذي الدبر ماكانوا له بكفاء*
قتيل حمته الدبر بين بيوتهم	*لدى أهل كفر ظاهر وجفاء*

خال الأحوص: (غسيل الملائكة):

أما خاله الذي يفخر به فهو (حنظلة بن أبي عامر) وهو خال جده عاصم بن ثابت، لأن والدة عاصم هي (الشموس بنت أبي عامر) أخت (حنظلة الغسيل).

وكان أبو عامر في الجاهلية يعرف بالراهب، وكان يذكر البعث ويتحنف، فلما بعث النبي عانده وحسده على مامنّ الله به عليه وخرج إلى مكة ثم قدم مع قريش يوم أحد محارباً فسماه الرسول أبا عامر الفاسق فلما فتحت مكة لحق بهرقل هارباً ومات هناك سنة تسع للهجرة.

وكان ابنه (حنظلة) قد استأذن الرسول في قتل أبيه فنهاه عن ذلك. وقد تزوج حنظلة (جميلة بنت عبد الله بن أبي بن سلول) رأس المنافقين، فأدخلت عليه في الليلة التي كانت صبيحتها وقعة أحد، وكان قد استأذن الرسول أن يبيت عندها فأذن له وأرسلت جميلة إلى أربع من قومها فأشهدتهم على ذلك وقيل لها بعد: "لم أشهدت عليه؟ قالت: رأيت كأن السماء فرجت فدخل فيها حنظلة ثم أطبقت".

وفي صبيحة أحد أخذ حنظلة سلاحه ولحق برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يسوي الصفوف، فلما انكشف المشركون اعترض حنظلة أبا سفيان بن حرب فضرب عرقوب فرسه فاكتسعت الفرس، ووقع أبو سفيان إلى الأرض فجعل يصيح: يامعشر قريش أنا أبو سفيان بن حرب، وحنظلة يريد ذبحه، فعاينه (شداد بن الأسود) فحمل على حنظلة بالرمح فأنفذه فيه، ومشى إليه حنظلة في

الرمح ثانية فقتله ونجا أبو سفيان.

ومر به أبوه (أبو عامر) وهو مجندل فقال: "إن كنت لأحذرك من هذا الرجل -يعني محمداً- من قبل هذا المصرع، والله إن كنت لبراً بالوالد شريف الخلق في حياتك وإن مماتك لمع سراة أصحابك وأشرافهم"، ثم نادى يامعشر قريش "حنظلة لا يمثل به".

وعندما جاء النبي وأصحابه لتفقد الشهداء مر على حنظلة فقال: إن صاحبكم لتغسله الملائكة فاسألوا صاحبته ماشأنه؟ "فسئلت صاحبته فقالت: "خرج وهو جنب حين سمع الهاتفة" فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك غسلته الملائكة، غسلته بماء المزن في صحاف من الفضة بين الأرض والسماء وإن رأسه كان يقطر ماء وماحوله ماء.

وكانت امرأته قد علقت بولد منه أسموه (عبد الله بن حنظلة)، ولد بعد أحد بتسعة أشهر، وكان شريفاً فاضلاً عابداً، وكانت له مكانة ممتازة.

وفد على (يزيد بن معاوية) مع وفد من أهل المدينة، ومعه ثمانية من بنيه، فأعطاه يزيد مائة ألف وأعطى كل واحد من بنيه عشرة آلاف، ولكنهم أجمعوا حين رجعوا إلى المدينة على إخراج بني أمية منها وخلع يزيد وذكروا مساوئه لأهلها فقام الناس يسبون يزيد فكفهم عبد الله عن الشتم وقال لهم: أصدقوهم في اللقاء فوالله لو لم أجد سوى هؤلاء لجاهدتهم بهم.

فبايعه الناس رئيساً للأنصار، فبعث يزيد إليهم (مسلم بن عقبة المرّي) فكانت وقعة الحرة سنة (63) للهجرة، وقاتل عبد الله في هذه الوقعة قتالاً شديداً، وقدّم بنيه الثمانية الواحد تلو الآخر حتى قتلوا جميعاً وتفرق الناس عنه فقال مولاه: "والله يا أباعبد الرحمن مابقي أحد فعلام تقيم؟" فقال: "ويحك إنما خرجنا على أن نموت" ثم انصرف من الصلاة وبه جراحات كثيرة فتقلد السيف ونزع الدرع حتى قتل، وعلى إثر وقعة الحرّة تفرق أهل المدينة والأنصار من الأوس والخزرج في الأمصار.

موقف الأحوص من الفتنة:

والعجيب الغريب أن اسم الأحوص لم يذكر أبداً إبان هذه الفتنة وتلك الحرب الضروس التي اشترك فيها أعمامه وأخواله وأبناء قبيلته جميعهم وأعمل فيهم السيف ذبحاً وتقتيلاً مع أنه كان في ذروة الشباب، فمعركة الحرّة وقعت سنة

63هـ وهو من مواليد سنة 35هـ.. وكانت سنّه آنذاك (28) سنة على الأرجح، كما لم تصلنا على لسانه أية قصيدة في رثاء ذوي قرباه أو في وصف القتال الذي استعر أواره وخطف أرواحاً عزيزة عليه مع أن التاريخ يذكر أن شعره قد وصل مرحلة متقدمة من النضج الفني عند وفاة معاوية، وليس لذلك إلا تفسيران اثنان هما:

أولاً: ربما أنه مزّق كل شعره الذي قاله في الحرب. اتقاء لشرّ بني أمية.

ثانياً: أو أنه كان شديد الولاء للخليفة يزيد، الذي اتصل به ومدحه، وأكرمه يزيد أيما إكرام، فحبس لسانه عن الخوض في معركة خاسرة سلفاً.

غزله ومجونه:

كان الأحوص فاجراً فاسقاً إلى حدود الفجور والفسوق، فقد شرب وأسرف في الشراب وأحب النساء والغلمان، وساعده آخر على المضيّ في المجون تنوع ماعرفه الحجاز بعامة والمدينة بخاصة في العصر الأموي من ضروب اللهو والمجون المأخوذ من ضروب الحياة عند الأمم المغلوبة على أمرها في الفتح، إذ أصبح التزين ظاهرة شائعة بين الجنسين، وكل منهما يتخذها لإثارة الجنس الآخر.. واشتهرت الجمة السكينية بين الرجال والنساء وفتن الرجال والنساء بطريقة تصفيف سكينة لشعرها.

وكثرت دور اللهو والغناء في المدينة، ولم تكن دور اللهو الوحيدة التي كان يرتادها الأحوص بل أكثر من ارتياد دور المغنيات وبيوتهن واختلف إلى جواريهن وسمع منهن الغناء الشجي بأشعاره وقال فيهن من الشعر مايستلطف ويستعذب، وأشعاره فيهن تكاد تكون أروع ماقاله في الغزل.

ومن دور الغناء التي كان الأحوص يكثر من الاختلاف إليها دار (عقيلة) المغنية، حيث كان يلتقي معبداً المغني، ومعاذاً الأنصاري وغيرهما.

وللأحوص مع عقيلة هذه مغامرات عاطفية ماجنة ذكرها في شعره إذ يقول:

هل تذكرين عقيل أو أنساكه	***بعدي تقلب ذا الزمان المفسد***
يومي ويومك في العقيق إذ الهوى	***منا جمع الشمل لم يتبدد***
لي ليلتان فليلة معسولة	***ألقى الحبيب بها بنجم الأسعد***

ومريحـــة همـــي علـــي كــأنني حتـــى الصبــاح معلــق بــالفرقد

ومن دار عقيلة إلى دار جميلة، إلـى سـلامة القس وأختها ريـا إلـى الذلفـاء حتى إن نسوة المدينة كن يستعذبن شعر الأحوص ويستلطفنه ويرغبن في سماعه منه أو من غيره.

ويحدثنا أبو الفرج بخبر نسوة اجتمعن عند امرأة من أهل المدينة فطلبن منها أن ترسل إلى الأحوص كي يتحدثن معه ويسمعن شيئاً من شعره. فردت عليهن وذكرت خشيتها من أن يشهرهن إذا عرفهن وينظم الشعر فيهن، فلم يزلن بها حتى أرسلت رسولاً يذكر له أمرهن ولايسميهن ويطلب منه أن يأتيهن مخمَّر الرأس، ففعل وتحدث معهن وأنشدهن فلما أراد الخروج وضع يده في تور بين أيديهن فيه خلوق وغطى رأسه وخرج، فوضع يده على الباب ليستطيع في اليوم التالي تمييزه بتلك العلامة، ثم تفقد الموضع الذي كان فيه فغدا إليه وطاف حتى وجد أثر يده على الباب فقال:

خمس دسسن إلـيّ فـي لطـفٍ حــور العيــون نواعــم زهــر

فطرقتهــن مــع الجــري وقــد نــام الرقيــب وحلــق النســر

فعكفـــن ليلتهـــن ناعمـــة ثـم استفقن وقـد بـدا الفجـر

قـــامت تخـــاصره لكلتهـــا تمشـــي تـــأود غـــادة بكـــر

كـــل يـــرى أن الشـــباب لـــه فـي كـل غايـة صبـوة عـذر

حتـى إذا أبـدى هـــواه لهـــا وبـــدا هواهـــا مالـــه ستـر

سـفرت ومـا سـفرت لمعرفـة وجهـــاً أغـــرّ كأنـــه البـــدر

حبه لأم جعفر:

أما حبه لأم جعفر وتشبيبه بها، فقد شاع ذكره لها في الناس وتغنى المغنون بأشعاره فيها حتى جأر أهلوها وشكوه إلى والي المدينة (أبي بكر بن محمد بن حزن). فأنزل به عقاباً صارماً سنعود إلى ذكره في مكان آخر من المقال. ومن قوله في أم جعفر:

لقــد منعــت معروفهــا أم جعفــر — إنـــي إلـــى معروفهـــا لفقـــير
وقـد أنكـرت بعد اعتراف زيـارتي — وقـد وغـرت فيهـا علـيّ صـدورُ
أدور ولــــولا أن أرى أم جعفـــــر — بأبيـــاتكم مــــادرت حيـــث أدور
أزور البيــوت اللاصقــات ببيتهــا — وقلبــي إلــى بيــت ســواه أزور
ومــــاكنت زواراً ولكــــن الهــــوى — إذا لــم يــزر لابــد أن ســـيزور
أزور أن لســـــت انفـــــك كلمــــا — أتيــت عــدواً بالبنـــان يشـــير

أو قوله:

وإنــي ليدعونــي هـوى أم جعفــر — وجاراتهـــا مـــن ســاعة فـــأجيب
وإنــي لآتــي البيــت مــا إن أحبــه — وأكـثر هجـر البيـت وهـو حبيـب
تطيــب لــي الدنيــا مــراراً وإنهــا — لتخبـث حتــى ماتكــاد تطيــب
وإنــــي إذا مــــاجئتكم متهلــــلاً — بـدا منكـم وجـه علـيّ قطـوب
وأغضي على أشياء منكم تسوءني — وآوي إلـــى ماســـرّكم فـــأجيب
وأحبس عنك النفس والنفس صبة — بقربـك والممســى إليـك قريـب
ومـازلت مـن ذكـراك حتـى كـأنني — أقيــم بأفيــاء الديــار حبيــب
أبثـك مـا ألقـى وفـي النفس حاجـة — لهـا بيـن جلـدي والعظـام دبيـب
فبينــي امــرءاً إمــا بريئــاً ظلمتــه — وإمـــا مســيئاً مذنبـــاً فيتـــوب
فـلا تـتركي نفســي شـعاعاً فإنهـا — من الحزن قد كـادت عليك تذوب

وشعره فيها ينم على نزوة شهوانية، يطاردها بها كما يطارد بها جاراتها في الحيّ الذي تسكنه، حيث يراقبه بعض الوشاة يترصدون خطاه ويبثون الأعين لتلقف أخباره والتنذّر بها بغية إلحاق السوء به.

والغريب في الأمر أن الأحوص لم يكن يعرف (أم جعفر) مطلقاً، وقد أثبت جهله بها حين قدمت عليه في مجلس قومه وطلبت منه قضاء دين لها عنده فأخذ يحلف أنه لايعرفها ولا رآها قط.

فاجتمع الناس عليه وكثر لغطهم حوله حتى قامت وقالت: "ياعدو اللّه صدقت واللّه مالي عليك حق ولا تعرفني وقد حلفت وأنت صادق. وأنا أم جعفر وأنت تقول: قلت لأم جعفر وقالت لي أم جعفر في شعرك. فخجل الأحوص وانكسر على ذلك، وبرئت عندهم.

ومن جميل شعره في الغزل قوله:

رام قلبي السلوّ عن أسماء	*وتعزّى ومابه من عزاء*
سخنة في الشتاء باردة الصيف	*سراج في الليلة الظلماء*
كفناني إن مت في درع أروى	*وامتحالي من بئر عروة مائي*
إنني والذي تحج قريش	*بيته سالكين نقب كداء*
لملم بها وإن أبت عنها	*صادراً كالذي وردت بداء*

وقد تستيقظ فيه المروءة أحياناً وينتبه الضمير الغافي فإذا به يعف عن وصال الجارة القريبة ولا يواصل عروس الخليل، فيقول:

قالت وقلت: تحرجي وصلي	*حبل امرئ بوصالكم صب*
صاحب إذن بعلي فقلت لها:	*الغدر شيء ليس من ضربي*
اثنتان لاأدنو لوصلهما	*عرس الخليل وجارة الجنب*
أما الخليل فلست فاجعه	*والجار أوصاني به ربيَ*

وكلامه هذا يكذبه واقع الحال، فهو فاسق فاجر لايتوانى عن ارتكاب المعاصي والإتيان بالمحرمات وصنع الرذائل مع أقرب المقربات منه، وقصصه في ذلك مشهورة في المدينة كلها بله الشام.

محنته:

ظلت سفينة حياته تتهادى برفق وهدوء تدفعها ريح رخاء طيلة أيام إمارة (عمر بن عبد العزيز) على المدينة، لما بين الرجلين من أواصر النسب ودواعي القربى... وكان عمر بن عبد العزيز قد ولي المدينة للوليد بن عبد الملك سنة 87هـ، فاستعمل على قضائها (أبا بكر بن محمد بن حزن) ثم استدعى الخليفة (عمر) إلى الشام وولّى مكانه (عثمان بن حيان المرّي) فأقر (أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم) على القضاء، ثم مالبث أن تولى ابن حزم الإمارة بعد (عثمان) في خلافة (سليمان بن عبد الملك) وكان بين الشاعر والقاضي حساسية اشتدت مع الأيام فارتفعت إلى درجة الخصومة، ومن الطبيعي أن تستفحل الخصومة بين شاعر متهتك ماجن، وبين قاضٍ متزمت يقيم الحدود.

فأخذ كل منهما يكيل التهم للآخر على مسمع ومرأى من أهل المدينة، فهذا (الأحوص) يسخر من ابن حزم إذ رآه يركب بغلة فيقول:

أعجبت أن ركب ابن حزم بغلة	***فركوبه فوق المنابر أعجب***
وعجبت أن جعل ابن حزم حاجباً	***سبحان من جعل ابن حزم يحجب***

أو يسخر منه وقد وقفت له الناس فيقول:

أقول وأبصرت ابن حزم بن فرتنى	***وقوفاً له بالمأزمين القبائل***
ترى فرتنى كانت بما بلغ ابنها	***مصدقة لو قال ذلك قائل***

وبالطبع. فقد كان القاضي يرد على قول الشاعر باتهامه بالكفر والزندقة والمجون.. ويتحين الفرص للإيقاع به. وقد وجدها سانحة عندما تولى إمارة المدينة، واتخذ من قصة أم جعفر ذريعة لذلك، فقد اهتبل فرصة شكوى أخيها (أيمن) عليه، فاستدعاه... فأتاه فقال له:

ماتقول فيما يقول هذا؟ قال: ومايقول؟ قال: يزعم أنك تشبب بأخته وقد فضحته وشهرت أخته بالشعر فأنكر الأحوص ذلك. فقال ابن حزم: "لقد أشكل عليّ أمركما ولكنني أدفع إلى كل واحد منكما سوطاً ثم اجتلدا بين يدي".

وكان الأحوص قصيراً نحيفاً وكان أيمن طويلاً ضخماً وجلداً، فغلب (أيمن) الأحوص فضربه حتى صرعه واثخنه فعيّره أحد الشعراء بقوله:

لقد منع المعروف من أم جعفر   *أشم طويل الساعدين غيور*

علاك بمتن السوط حتى اتقيته   *بأصفر من ماء الصفاق يغور*

ثم كثرت الشكاوي على الأحوص، وربما كان ابن حزم يفتعلها، إلى أن ولي الخلافة (عمر بن العزيز) فأمر الوالي بإقامة الحد عليه، وضربه ورفعه على (البُلس) (وهو مكان عالٍ توضع فيه أكياس التبن) فاغتنم ابن حزم الفرصة ووضع (الأحوص) على البُلس وصب الزيت على رأسه... ثم طيف به وهو عريان.. ولكنه واجه قدره بصبرٍ وجلدٍ وعزة نفس فقال:

ما من مصيبة نكبة أمنى بها   *إلا تعظمني وترفع شاني*

إني إذا خفي الرجال وجدتني   *كالشمس لاتخفى بكل مكان*

وقيل: إن بني زريق من الخزرج، غضبوا له فدفعوا عنه واحتملوه من أعلى البُلس رغم أنف ابن حزمٍ فقال الأحوص:

إما تصبني المنايا وهي لاحقة   *وكل جنب له قد حمّ مضطجع*

فقد جزيت بني حزم بظلمهم   *وقد جزيت زريقاً بالذي صنعوا*

ثم نفي إلى (دهلك) وهي جزيرة في البحر الأحمر.. وبقي هناك ولاية عمر وصدراً من ولاية يزيد بن عبد الملك وذهبت محاولة بعض الأنصار في إنقاذه من النفي والأسر سدى فقد فاجأهم (عمر) بقوله: من القائل:

اللّه بيني وبين قيمها   *يغرُّ مني بها واتّبع*

قالوا: الأحوص. وأضاف فمن الذي يقول:

ستبقى لها في مضمر القلب والحشا   *سريرة حب يوم تبلى السرائر*

قالوا: الأحوص. قال: إن الفاسق عنها يومئذ لمشغول. واللّه لا أرده ماكان لي سلطان.

إلا أن الخليفة (يزيد بن عبد الملك) رأف بحاله، بعد أن سمع إحدى الجواري تغني بشعر له. فأطلق سراحه. وتنامت الصلة وتوطدت العلاقة بينهما وتعاظمت مكانة الشاعر لدى الخليفة وكان الخليفة يعجب ببيتين قالهما الأحوص مادحاً إياه وهما:

وإنـــي لأســـتحييكم أن يقودنـــي إلى غيركم من سائر النـاس مطمـع

وأن أجتـدي للنفـع غـيرك منهـم وأنـــت إمـــام للرعيـــة مقنـــع

وفاة الأحوص:

ذكر ابن الأعرابي: "إن الأحوص خرج إلى دمشـق ومعـه جاريـة يقـال لهـا (بشرة) وكان شديد الإعجاب بها لايكاد يصدّ عنها، وكانت هي أيضاً من المحبـة له على أكثر من ذلك فاشتكى الأحوص واشتدت علته وحضرته الوفـاة فـأخذت رأسه فوضعته في حجرها وجعلت تبكي فقطر من دموعها على خدّه فرفع رأسه إليها وقال:

مـا لجديد المـوت يـا بشـر لـذة وكـل جديـد تسـتلذ طرائفـه

فـلا ضـير إن اللّـه يابشر سـاقني إلـى بلـد جـاوزت فيـه خلائفـه

فلست وإن عيش تولـى بجـازع ولا أنـا ممـا صمـم المـوت خائفـه

وتوفي في خلافة يزيد بن عبد الملك سنة 105هـ، عن عمر يناهز السـبعين عاماً وبوفاته هوى طود ضخم من أطواد الشعر والهوى والغزل واللهو والمجون والغناء، بعد أن ضمخ أسماع الناس طويلاً بشذى أزاهير شـعره الجميـل، وتـرك لنا تراثاً من هذا الشعر. ضيع الدهر أكثره ولم يحفظ لنا منه إلا القليل القليل.

اتصاله بالخلفاء الأمويين ومدائحه فيهم:

اتصل أول ما اتصل بالخلفاء الأمويين بمعاوية بـن أبـي سـفيان، وكـان فـي مطلع شبابه، ولم تصلنا مدائح منه بمعاوية. إلا أن أبياتاً قليلة وصلـت فـي رثائـه لمعاوية يقول فيها:

ملـك تديـن لـــه الملـوك مبـارك كـادت لجبهتـه الجبـال تـزول

تجبـى لـه بلـخ ودجلـة كلهـا ولـه الفـرات وماسـقى والنيـل

ولقي حظوة لدى (يزيد بن معاوية) إلا أنـه لـم يتصـل بعبـد الملـك، ويرجـع ذلك لموقف الخليفة من أهل المدينة والأنصار، فقد قدم عبد الملـك المدينـة حاجـا سنة خمس وسبعين فجلس على المنبر فشتم أهل المدينة ووبخهم قائلاً: مـاوجدت

لكم مثلاً إلا ماقال أخوكم ومخنثكم الأحوص:

وكم نزلت بي من خطوب مهمة خذلتم عليها ثم لم أتخشع

فأدبر عني شرها لم أبل بها ولم أدعكم في كربها المتطلع

إلا أن الأحوص تمتع بصفة مميزة لدى "الوليد بن عبد الملك" جعلته يرافقه في جولته داخل المدينة ويصلي معه في المسجد.

أما في عهد (عمر بن عبد العزيز) فإنه لم يلق حظوة عنده، بل أنزل به الجلد والنفي ولم يلق منه إلا الزجر مع أنه مدحه بقصيدة تعد من عيون شعر الأحوص أيام كان (عمر) أميراً للمدينة يقول فيها:

ياابيت عاتكة التي أتعزل حذر العدا وبه الفؤاد موكل

إني كفاني أن أعالج رحلة عمر ونبوة من يضن ويبخل

أغنت قرابته وكان لزومه أمراً إبان رشاده من يعقل

حتى إذا رجع اليقين مطامعي يأساً وأخلفني الذين أؤمل

زايلت ماصنعوا إليك برجعة عجلى وعندك عنهم متحول

ووعدتني في حاجتي فصدقتني ووفيت إذ كذبوا الحديث وبدلوا

فلأشكرن لك الذي أوليتني شكراً تحل به المطي وترحل

مدحاً تكون لكم غرائب شعرها مبذولة ولغيركم لاتبذل

فإذا تنخلت القريض فإنه لكم يكون خيار ما أتنخل

وأراك تفعل ماأقول وبعضهم مذق الحديث يقول مالا يفعل

وأرى المدينة حين صرت أميرها أمن البريء بها ونام الأعزل

وله فيه قصائد كثيرة يستعطفه فيها يوم نفي إلى دهلك.

ولم تكن علاقته بسليمان بن عبد الملك طيبة، سيما وأنه ثبت خصمه (ابن حزم) على إمارة المدينة فتراه يعرض به في شعره فيقول:

سليمان إذ ولاك ربك حكمنا   *وسلطاننا فاحكم إذا قلت واعدل*

يؤم حجيج المسلمين ابن فرتنى   *فهب ذاك حجاً ليس بالمتقبل*

أما في عهد (يزيد بن عبد الملك) فقد ابتسم له الحظ من جديد، إذ غنته (حبابة) ذات يوم بقول الأحوص ولحن معبد:

ألا لاتلمه اليوم أن يتبلدا   *فقد غلب المحزون أن يتجلدا*

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ماالهوى   *فكن حجراً من يابس الصخر جلمدا*

فما العيش إلى ماتلذ وتشتهي   *وإن لام فيه ذو الشنان وفندا*

وإني وإن عيرت في طلب الصبا   *لأعلم أني لست في الحب أوحدا*

وينتقل إلى مدحه فيقول:

كريم قريش حين ينسب والذي   *أقرت له بالملك كهلاً وأمردا*

وليس عطاء كان منه بمانع   *وإن جل عن أضعاف أضعافه غدا*

ولو كان بذل المال والجود مخلدا   *من الناس إنساناً لكنت المخلدا*

وأوقدت ناري باليفاع فلم تدع   *لنيران أعدائي بنعماك موقدا*

فكم لك عندي من عطاء ونعمة   *تسوء عدواً غائبين وشهدا*

وماكان مالي طارفاً من تجارة   *ولا كان ميراثاً من المال متلدا*

ولكن عطايا من إمام مبارك   *ملأ الأرض معروفاً وعدلاً وسؤددا*

فطرب الخليفة وهب ضارباً بخيزرانته الأرض وقال: صدقت وصدق قائل هذا الشعر "قاتل الله مسلمة ولعنة الله عليه وعلى ماجاء به والله لا أطيعه أبداً" وكان مسلمة قد نصحه بالابتعاد عن المغنيات والإماء فما سمع له نصحاً، ثم سأل عن الشاعر فقيل له: الأحوص، فأمر بإحضاره من(دهلك) وأمر له بالعطاء والهدايا.

وفي كتاب الأغاني أخبار كثيرة شيقة ومتشعبة، منها الصحيح المسند، ومنها المصنوع المختلق، ويمكن لمن يريد معرفتها أن يتابعها ويقرأها في

مظانها، إذ لامجال لذكرها في هذا المقال كاملة.

قيمة الأحوص وآراء القدماء والمحدثين فيه:

عاش الأحوص حياته بالطول والعرض، وترك في حياته زوبعة كدرة، سواء في خصومته مع ولاة الأمور أو في تجرئه على العفيفات المحصنات، إلا أنه رغم كل ذلك فقد ترك لنا تراثاً ضخماً في الشعر والغناء والذكريات الجميلة التي تتعشقها النفوس كما ترك أثراً طيباً في نفوس معاصريه، وفي نفوس الأدباء والشعراء فيا بعد.

فهذا ابن سلاّم جعله مع ابن قيس الرقيات ونصيب وجميل طبقة سادسة في شعراء الإسلام وقال: "والأحوص لولا ماوضع به نفسه من دنيء الأخلاق والأفعال أشد تقدماً منهم عند أهل الحجاز وأكثر الرواة وهو أسمح طبعاً وأسهل كلاماً وأصح معنى منهم ولشعره رونق وديباجة صافية وحلاوة وعذوبة ألفاظ، ليس لواحد منهم وكان قليل المروءة والدين هجاءً للناس مأبوناً فيما يروى عنه" وأورد (المبرد) ذكر الأحوص في عدة مواضع من كامله، وأثنى على ظرفه وجودة أشعاره.

أما ابن عبد ربه، فقد ذكره في العقد الفريد في عدة أمكنة وجعل بيته المشهور:

إني إذا خفي الرجال وجدتني   *كالشمس لاتخفى بكل مكان*

- أفخر بيت قالته العرب.

وذكره كل من الآمدي والحصري والبكري، وابن الجوزي والنويري والكتبي وابن كثير والعيني والأنطاكي والبغدادي.. كما أثنى عليه ابن خلدون في مقدمته وجعله في قائمة الفحول الإسلاميين.

أما الأدباء المحدثون فكان في طليعتهم الدكتور طه حسين الذي كتب عنه رسالة موجزة في كتابه حديث الأربعاء. تطرق فيه إلى تحليل شخصية الشاعر من خلال أخباره وبعض أشعاره ومن خلال الظروف السياسية والاجتماعية التي طبعت الحجاز وأهله في ذلك العصر فدافع المؤلف عن الشاعر في مواجهة مارمي به من الصفات وأعطاه المبررات لأعماله.

كما تطرق إلى ذكر الأحوص عدد كبير من المحدثين منهم بطرس البستاني

في دائرته وحنا الفاخوري وسامي الدهان، وجرجي زيدان، وبروكلمان، وكارل بتراسك وشوقي ضيف.. في حين قدّم الأستاذ (محمد علي سعد) دراسة عن الشاعر لنيل درجة الماجستير لكلية الآداب في الجامعة اللبنانية أشرف عليها الدكتور جبرائيل جبور وكانت غنية وشاملة وبذل فيها صاحبها جهداً يحمد عليه.

وفي الختام:

لايسعنا إلا أن نقول: إن الأحوص رغم مافيه من مجون وتهتك وفجور وسلاطة لسان يظل محبباً للنفس لما فيه من نبوغ وعبقرية ولما صدر عنه من شعر يطرب النفوس ويذهب بالألباب..

فقد كان فعلاً شاعر الأنصار بل شاعر المدينة والحجاز كله، استطاع بشعره أن يريح النفوس المتعبة المكدودة والتي لم تعرف طعماً للراحة، في يوم من الأيام بعد أن سامها الأمويون سوء العذاب وأنزلوا بها أشد العقاب، إلا في ظل ما اختارته من هروب نفسي وانزواء وانغماس في حمأة الشهوات واللذائذ المسموحة والممنوعة التي وجد فيها الأحوص وغيره من الشعراء متنفساً يتنفسون منه وواحة يأوون إليها ويستظلون بها، بعد أن أحصيت أنفاسهم عليهم وماكان مايقومون به من أعمال ومايقولونه من شعر إلا من قبيل التحديات للسلطة التي ماكان لها أن تمنع عنهم كل شيء فتركتهم في غيهم يعمهون بعد أن ركنوا للهدوء والراحة وللاستسلام وأفسحوا المجال بانسحابهم من الحلبة، لأرباب السلطة كي يفعلوا مايروق لهم دون معارضة من أحد، ورحم اللّه شاعرنا الأحوص الذي أثار في شعره العذب الرقيق سحابة عطر ساحرة في سموات الفن العلى ظللت الجميع وضمخت الجميع عبر زمان طويل.

❑■❑

أبو الشيص الخزاعي

أوصف الناس للشراب وأمدحهم للملوك

هو محمد بن عبد الله بن رزين بن سليمان الخزاعي، كنيته "أبو جعفر"، و"أبو الشيص"، لقب غلب عليه، والشيص رديء التمر واحدته "شيصه" و"شيصاء"، وقيل فارسي معرب.

يرجح الباحثون أنه من مواليد الكوفة بين سنتي (126-136) هـ، وبها نشأ، ثم انتقل منها إلى حاضرة الدولة العباسية (بغداد) ودرج هناك في بلاط (هارون الرشيد) حتى عد من شعرائه، وله فيه مدائح ومراثٍ مشهورة، ثم ارتحل إلى الرقة وأقام عند أميرها (عقبة بن جعفر بن الأشعث الخزاعي)، وانقطع له، وقضى بقية حياته في ظلال نعيمه إلى أن قضى في حادث مؤسف سنذكره في مكان آخر من هذا المقال.

بيته:

يُعد بيت أبي الشيص من أشهر بيوتات الشعر في القرنين الثاني والثالث الهجريين، فابن عمه (دعبل بن علي بن رزين الخزاعي) من أشهر شعراء زمانه، وكان قد كرس شعره لمدح آل البيت حتى اشتهر بلقب (شاعر آل البيت)، وهو شاعر مشهور وغني عن التعريف ويعد من طبقة(صريع الغواني) و(أبي نواس) وأضرابهما. كما أن ولده (عبد الله بن محمد بن أبي الشيص)، شاعر كبير أيضا، وله قصائد سائرة وخاصة تلك التي رثا فيها الشاعر أبا تمام الطائي والتي يقول فيها:

أصبح في ضنك من الأرض *أكثر في الأرض من الأرض*

من عرض ذكراه ومن طولها   كالأرض ذات الطول والعرض

أكرم بملحود يداني إلى   وجهك يابن الكرم المحض

مافي حبيب لي، ابن أوس أسى   يجمع بين الجفن والغمض

حار ذوو الألباب، إذ فوجئوا   منه بيوم غير مبيض

انتقض الإبرام من عمر من   كان أبا الإبرام والنقض

طود من الشعر دعا بعضه   بعضاً، فهدَّ البعض بالبعض

بحرٌ من الشعر له جائشٌ   ملتطم باللؤلؤ البض

كأنما الشعر شعارٌ له   أو ورق في غصن غض

لما أتمَّ الله فيك الذي   أملت من بسط ومن قبض

رماك رامٍ للمنايا وما   آذن عند الرمي بالنبض

لو كان للشعر عيونٌ بكت   لكوكب للشعر منقض

ولعل من جميل قوله في الدهر:

أظن الدهر قد آلى فبرا   بأن لا يكسب الأموال حرا

لقد قعد الزمان بكل حر   ونقص من قواه المستمرا

كأن صفائح الأحرار أردت   أباه فحارب الأحرار طرا

وأمكن من رقاب المال قوماً   وملكهم به نفعاً وضرا

إذا رفعت بنو الأنساب صوتاً   أعادوا الجهر بالأنساب سرا

فأصبح كل ذي شرفٍ ركوباً   لأعناق الدجى بحراً وبرا

يهتك جيب درع الليل عنه   إذا ما جيب درع الليل زرا

يراقب للغنى وجهاً ضحوكاً   ووجهاً للمنية مكفهرا

ليكسب مـن أقـاصي الأفـق كسباً يحـل بـه المحـل المشـمخرا

ومـن جعـل الظـلام لـه قعـوداً أصـاب بـه الدجـى خـيراً وشـرا

ومن روائع غزله قوله:

ومعرضـة تظـن الهجـر فرضـا تخـال لحاظهـا للضعـف مرضـى

كـأني قـد قتلـت لهـا قتيـلاً فمـا منـي بغـير الهجـر ترضـى

وذكر ابن النديـم فـي (الفهرسـت) أن شـعر عبـد اللـه بـن أبـي الشـيص فـي سبعين ورقة، وقد بقي شيء قليل منه في كتب الأدب والتاريخ والشعر..

ومن رجال بيت أبي الشيص (داود بن رزيـن) وينسـب إلـى (واسـط) ولـه صحبة مع أبي نواس وروي له شعر معه، و(علي بن رزيـن) وهـو شـاعر مقل أيضاً له شعر في (محاضرات الأدباء) و(الحماسة البصرية) وغيرهما.

و(علي بن رزين) شاعر ذكره ابن النديم وقال:

إن شعره يقع في خمسين ورقة، وذكره المرزباني والآمدي أيضاً. ومن هذه العائلة أيضاً (أبـو الحسن علـي بـن علـي) شـاعرٌ ذكـره ابـن رشـيق القـيرواني، و(الحسين بن علي) من شعراء القرن الثاني للهجرة، ذكره ابـن النديم وقـال: إن ديوانه يقع في مائتي ورقة، وبقي منه شيء قليل احتفظت به بعض كتب الأدب كمحاضرات الأدباء والمستطرف للأبشيهي وغيرهما. ومنهم أيضاً شاعرٌ يقال له (الأرقط) ذكره الآمدي وروى له شعراً في الموازنة.

حياته وأخباره:

يقول (عبد اللـه الجبوري) فـي كتابـه (ديـوان أبـي الشـيص الخزاعـي وأخباره):"لقد ضنت المراجع العربيـة القديمـة علـى أبـي الشـيص، فحجبت عنـا أخباره ولم تحك شيئاً عن حياته يغني البـاحث ويفيد منـه الدارس اللهم إلا نبذاً انتشرت كالنجوم في صحائف بعض الأصول".

إلا أنّنا من الأخبار المتفرقة الواردة في مكانها وخاصة في كتـاب الأغـاني، نستطيع أن نجمع بعض الأخبار عن أبي الشيص وعن آبائه وأجـداده، فمن ذلـك أن جدّه أبا علي (بديل بن ورقـاء) صحـابي جليـل تقدم إسلامه وكـان مـن كبـار مسلمة الفتح، أسلم هو وابنه يوم فتح مكة، وتوفي فـي حيـاة الرسـول صلـى اللـه

عليه وسلم. وذكر ابن اسحق:

أن قريشاً لجؤوا يوم فتح مكة إلى داره ودار مولاه رافع، وأن ابنه (عبد الله بن بديل) قتل في معركة (صفين) وبالطبع فقد قتل في صفوف الإمام علي كرم الله وجهه لأن الأسرة بكاملها كانت تتشيع لآل البيت وخاصة شاعرهم الفحل (دعبل الخزاعي).

وذكرت المصادر فيما ذكرته عن أخبار أبي الشيص أنه فقد بصره في آخر حياته فقال يبكي عينيه:

يانفس بكي بأدمع هتن ... وواكف كالجمان في سنن

على دليلي وقائدي ويدي ... ونور وجهي وسائس البدن

أبكي عليها بها مخافة أن ... يقرنني والظلام في قرن

ومن جميل أخباره ما أورده الأصفهاني في كتابه الأغاني إذ قال:

"اجتمع مسلم بن الوليد وأبو الشيص ودعبل الخزاعي وأبو نواس في مجلس، فقالوا لينشد كل واحد منكم أجود ماقاله من الشعر، فاندفع رجل كان معهم فقال:

اسمعوا مني أخبركم بما ينشد كل واحد منكم قبل أن ينشد. نقالوا: هات، فقال لمسلم: أما أنت يا أبا الوليد فكأني بك قد أنشدت:

إذا ما علت منا ذؤابة واحد ... وإن كان ذا حلم دعته إلى الجهل

هل العيش إلا أن تروح مع الصبا ... وتغدو صريع الكأس والأعين النجل

قال وبهذا البيت لقب بـ (صريع الغواني)، لقبه به الرشيد.

فقال له مسلم: صدقت، ثم أقبل على أبي نواس، فقال له:

كأني بك يا أبا علي قد أنشدت:

لا تبكِ ليلى ولا تطرب إلى هند ... واشرب على الورد من حمراء كالورد

تسقيك من عينيها خمراً ومن يدها ... خمراً فمالك من سكرين من بد

فقال له: صدقت. ثم أقبل على دعبل فقال له: وأنت يا أبا علي فكأني بك تنشد:

أيـن الشـباب وأيـة سـلكا — لا أيـن يطلـب ضـل بـل هلكـا

لا تعجبـي ياسـلم مـن رجـل — ضحـك المشـيب برأسـه فبكـى

فقال: صدقت. ثم أقبل على أبي الشيص فقال له: وأنت يا أبـا جعفر فكأني بك وقد أنشدت قولك:

لا تنكـري صـدّي ولا إعراضـي — ليس المقل على الزمـان بـراض

فقال له: لا ماهذا أردت أن أنشد، ولا هذا بأجود شيء قلتـه، قالوا: فأنشدنا ما بدا لك، فأنشدهم قوله:

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي — متـأخر عنـه ولا متقـدم

أجـد الملامـة فـي هـواك لذيـذة — حبـاً لذكـراك فليلمنـي اللـوم

أشـبهت أعدائـي فصـرت أحبهـم — إذا كان حظي منـك حظي منهم

وأهنتنـي فـأهنت نفسـي صـاغراً — مـامن يهون عليك ممن يكـرم

فقال أبو نواس: أحسنت والله، وجودت، وحياتك لأسرقن هذا المعنى منـك، ثم لأغنك عليه فيشتهر ما أقول ويموت ماقلت.".

من الخبر السابق، تظهر لنا بوضوح وجلاء أهمية أبي الشيص وقيمتـه فـي بغداد، فهو شاعر الخليفة وصديق فحول الشعراء آنذاك كـأبي نـواس، وصريـع الغوانـي، ودعبـل، ولاشك أنـه كـان مـن طبقتهم ولا يقل عنهم، وكـانت بغـداد وحاناتها وبساتينها وأديرتها مرتعـا لهـم ولعربدتهم وزندقتهم. ومجـالي أفراحهم وسرورهم ولهوهم، ولكن يبدو أن الحال قد تبدلت بشاعرنا (أبـي الشيص) فـإذا حبه لبغداد يبدو في شعره كرهـاًونفوراً، فهـو أحيانـاً يتذمر من كثرة براغيثها فيقول:

تطاول فـي بغداد ليلي ومن يبت — ببغـداد يلبـث ليلـه غـير راقـد

بـلادٌ إذا زال النهـار تقـافزت — براغيثهـا مـابين مثنـى وواحـد

ديازجـة شـهب البطـون كأنهـا — بغـال بريد أرسلت فـي المـذاود

أو يدعو عليها بالدمار والخراب وأن تعمر ديارها -لاقدر اللّـه- بالعاويـات

من الكلاب فيقول:

بغـــداد بعـــدا لاســـقى	*ســاحاتها صــوب الســحاب*
عمـــر الإلـــه ديارهـــا	*بالعاويـــات مـــن الكـــلاب*

ونستطيع أن نتكهن أن كرهه لبغداد جاء بعد وفاة (هارون الرشيد) واقتتال ولديه (الأمين والمأمون) وشيوع الخوف والفوضى في بغداد وضواحيها، مما اضطره إلى الرحيل إلى الرقة وقضاء بقية عمره فيها يمدح أميرها (الخزاعي) الذي رعى حرمة القرابة وأغناه بكرمه وعطائه عن سؤال غيره.

وفاتـــه:

أورد أبو الفرج الأصفهاني قصة وفاة أبي الشيص في حادث مأساوي وطريف في آن واحد، فقال: "كان أبو الشيص عند (عقبة بن جعفر بن الأشعث الخزاعي)، يشرب، فلما ثمل نام عنده، ثم انتبه في بعض الليل فذهب إلى خادم له، فوجأه بسكين، فقال له: ويحك قتلتني والله ما أحب أن أفتضح أني قتلت في مثل هذا، ولا تفتضح أنت بي، ولكن خذ دستيجة -يعني زجاجة خمر- فاكسرها ولونها بدمي واجعل زجاجها في الجرح، فإذا سُئلت عن خبري فقل: إني سقطت في سكري على الدستيجة فانكسرت فقتلتني، ومات من ساعته، ففعل الخادم ما أمره به، ودفن أبو الشيص، وجزع عليه (عقبة) جزعاً شديداً، فلما كان بعد أيام سكر الخادم، فصدق (عقبة) خبره وأنه هو قتله، فلم يلبث أن قام إليه بسيفه، فلم يزل يضربه حتى قتله. وهكذا انتهت حياة هذا الشاعر على هذه الصورة المؤسفة والمخزية معاً، وكان ذلك عام (196 هـ) وقيل سنة (200) للهجرة.

ديوانـــه:

ذكر ابن النديم أن لأبي الشيص ديواناً صنعه أبو بكر الصولي المتوفي سنة (342 هـ)، وقال هو في خمسين ومائة ورقة، وعلى الأغلب أن الديوان فقد فيما فقد من الكتب، وتناثرت مختارات من أشعاره في شتيت المظان والمراجع التاريخية والأدبية، إلى أن هيأ الله لها الأستاذ (عبد الله الجبوري) فعمد إلى لملمة شتات شعره، كما يقول، من بطون الأسفار اللغوية والتاريخية والأدبية قديمه وحديثه، ومنها ماهو مخطوط وماهو مطبوع تيسيراً للباحثين والأدباء، وجوز لنفسه أن يطلق على صنيعه اسم: ديوان أبي الشيص، فجزاه الله خيراً

عن الشعر والشاعر، وعما قدمه من جهد طيب في إحياء هذا التراث الذي كاد يضيع في زوايا الإهمال والنسيان.

شعر أبي الشيص:

يتوزع شعر أبي الشيص بين ثلاثة أغراض لا رابع لها وهي:

الغزل والشراب والمديح، على عادة أهل ذلك الزمان، وهو في غزله وفي وصفه للشراب قريب من مذهب أصدقائه أبي نواس، ودعبل، وصريع الغواني، وغيرهم من شعراء العصر العباسي الأول، حيث الغزل الحسي، والمجون، وإن كان المجون غير واضح فيما تبقى من شعره، بسبب ضياع معظم شعره، ولكن قصة مقتله تحدث بوضوح عن فجوره وعن إتيانه الغلمان كغيره من شعراء عصره. وسنتحدث فيما يلي عن أغراض شعره الثلاثة بشيء من التوسع لنعطي للقارئ الكريم فكرة تامة وصادقة عن شعر هذا الشاعر الذي جرى في ميدانه فجاء سابقاً بمعانيه الفريدة وبأسلوبه الجزل الرائع الذي يبعث في النفس الإنسانية شتى الأحاسيس الجمالية الخلابة.

غزل أبي الشيص

لم تصلنا لأبي الشيص قصائد كاملة تقتصر على الغزل، وإنما وصلتنا مقطعات غزلية تقتصر على البيت والبيتين، وقد تتضمن قصائده في وصف الشراب والمديح أبياتاً في الغزل الجميل العذب الذي ينضح من روح العصر التي نضح منها أضرابه من الشعراء الكبار، وإن كان يمتاز عن سواه من الشعراء بأنه كثير الغزل بالعيون، ولعل علة عينيه التي اشتدت فأصابته بالعمى في أخريات أيامه هي التي شجعت هذا الاتجاه في الوصف فاسمعه يقول في إحدى خمرياته:

قد سقتني والليل قد فتق الصبح بكأسين ظبيةٌ حوراء

عن بنان كأنه قضب الفضة حنَّى أطرافها الحناء

أو قوله:

يرمين ألباب الرجال بأسهم قد راشهن الكحل والتهذيب

أو قوله:

سقاني بها والليل قد شاب رأسه — *غزال بحناء الزجاجة مختضب*

لطيف الحشى عبل الشوى مدمج القرى — *مريض جفون العين في طيه قبب*

وقد يتحدث عن المسك والحجارة الكريمة في قصائده على عادة أهل العصر فيقول في جارية يقال لها (تبر):

لم تنصفي يا سمية الذهب — *تتلف نفسي وأنت في لعب*

يابنة عم المسك الزكي ومن — *لولاك لم يتخذ ولم يطب*

ناسبك المسك في السواد وفي — *الريح فأكرم به من نسب*

وقد تلوعه نار الهجران والصد فيبكي من أعماقه، أو هكذا يتراءى لقارئ شعره، ويبدع أيما إبداع في وصف دموع العشاق والمحبين، فيصفها بأنها ألسنة القلوب التي لا تستطيع الكلام فيفيض الدمع معبراً عما في القلوب:

وقائلة وقد بصرت بدمع — *على الخدين منحدر سكوب*

أتكذب في البكاء وأنت خلو — *قديماً ما جسرت على الذنوب*

قميصك والدموع تجول فيه — *وقلبك ليس بالقلب الكئيب*

نظير قميص يوسف حين جاؤوا — *على ألبابه بدم كذوب*

فقلتُ لها فداك أبي وأمي — *رجمت بسوء ظنك في الغيوب*

أما والله لو فتشت قلبي — *لسرك بالعويل وبالنحيب*

دموع العاشقين إذا تلاقوا — *بظهر الغيب ألسنة القلوب*

ومن جميل غزله قوله:

قل للطويلة موضع العقد — *ولطيفة الأحشاء والكبد*

هلا وقفت على مدامعه — *فنظرت مايعملن في الخد*

لولا التمنطق والسوار معاً — *والحجل والدملوج في العضد*

لتزايلت من كل ناحية — *لكن جعلن لها على عمد*

جاءت إلى عينيك وجنتها في خلعة الخيري والورد

وقد يتحدث في شعره عن زورة الحبيبة السريعة، ولعله يتكلم على طيفها الذي سرعان مايختفي من حلم لذيذ فيقول:

يا حبذا المزور الذي زارا كأنه مقتبس نارا

نفسي فداء لك من زائر ماحل حتى قيل قد سارا

مر بباب الدار واجتازها ياليته لو دخل الدارا

وقد يبالغ أحياناً في وصف محبوبه فيجعله ممن تخشع له شمس النهار، أو القمر، وقد يفوقها بالحسن والجمال في عين من له بصر:

تخشع شمس النهار طالعة حتى تراه ويخشع القمر

تعرفه أنه يفوقهما بالحسن في عين من له بصر

وقد أتعبته التجربة في الحب سيما في أخريات أيامه، فإذا به يعطيك في النساء حكمته الصادقة والصادرة عن تجارب مريرة:

اثنان لا تصبو النساء إليهما ذو شيبة ومحالف الانفاض

فوعودهن إذا وعدنك باطل وبروقهن كواذب الإيماض

ومن طريف قوله في فرقة الأحباب ماقاله في غراب البين الذي اعتادت العرب أن تحمله سبب الهجر والقطيعة، فإذا به يبرئ الغراب من هذه التهمة التي لازمته طيلة حياته، ويحملها للإبل التي تحمل الأحباب بعيداً عن الأحباب، فيقول:

مافرق الأحباب بعد الله إلا الإبل

والناس يلحوْن غراب البين لما جهلوا

وما إذا صاح غراب في الديار احتملوا

وما على ظهر غراب البين تطوى الرحل

وما غراب البين إلا ناقة أو جمل

....

ذلك هو غزل -أبي الشيص- الكلمة الرقيقة العذبة والمعنى الفريد الجديد الذي تشتم منه رائحة المسك والعنبر والورد والخيري والياسمين، وتنظر إلى العيون المريضة والجفون المقرحة... والقامة التي يجذب أسفلها أعلاها كقوله في جارية أحدهم وقد عشقها:

جارية تسحر عيناها أسفلها يجذب أعلاها

أصبحت أهواها وأهوى الردى لكل من أصبح يهواها

نفسي على أمرين مطبوعة حبي لها أو بغض مولاها

قد ملكتني وهي مملوكة قصرت أخشاه وأخشاها

...

أية ألفاظ سهلة ممتنعة، وأي جرس موسيقي راقص ترقص الأرواح على ألحانه العذبة وأية روح تعمر هذه النفس التي عرفت معنى الجمال الحقيقي فأخذت تتذوقه في لوعة وأسى وفي دمعة جفن، وفي خصر أهيف وردف ممتلئ لا أعجف... ذلك هوغزل أبي الشيص الذي يسحر الألباب ويثير في النفس البشرية آيات الحب والإعجاب.

هذا ولو كان كامل شعره في الغزل قد وصلنا لكان له معنا الآن شأن آخر، وربما كان تجاوز مرتبته وطغى على أضرابه من فرسان الغزل والنسيب كابن عمه (دعبل)، وربما تفوق على أبي نواس نفسه.

خمريات أبي الشيص:

ووصف الخمر والشراب من اختصاص أبي الشيص، وقد فاق أقرانه من الشعراء بوصفها وأبدع في توليد المعاني الرائعة فيها حتى قال فيه ابن المعتز: كان من أوصف الناس للشراب وأمدحهم للملوك. وناهيك عن ابن المعتز من ناقد ذواقة للشعر والخمر، فقد عرفها معرفة الخبير وتذوقها وأسرف في احتسائها على عادة شعراء ذلك الزمان، ولا عجب في ذلك فهو صديق أبي نواس وربيب قصور بغداد والرقة، ولذا فقد جاء وصفه للخمرة عن تجربة صادقة لا عن سماع، وأجاد في وصفها:

وكميت أرقها وهج الشمس وصيف يغلي بها وشتاء

طبختها الشعرى العبور وحَثَّت نارها بالظهائر الجوزاء

محضتها كواكب القيظ حتى أقلعت عن سمائها الأقذاء

هي كالسراج في الزجاج إذا ما صبها في الزجاجة الوصفاء

ودم الشادن الذبيح ومايحتلب الساقيان منها سواء

قد سقتني والليل قد فتق الصبح بكأسين ظبية حوراء

عن بنان كأنها قضب الفضة حتى أطرافها الحناء

أو يقول:

كميت أجادت جمرة الصيف طبخها ... فآبت بلا نار تحش ولا حطب

لطيمة مسك فت عنها ختامها ... معتقة صهباء حيرية النسب

ربيبة أحقاب جلا الدهر وجهها ... فليس بها إلا تلألؤها ندب

إذا فرجات الكأس عنها تخيلت ... تأملت في حافاتها شعل اللهب

كأن اطراد الماء في جنباتها ... تتبع ماء الدر في سبك الذهب

وقد ينهاه الشيب عن خلة الخمر، وعن معاقرتها، ولكن هيهات لمثله أن يتوب، بل تراه يمعن في احتسائها ويجود في وصفها فيقول:

نهى عن خلة الخمر ... بياض لاح في الشعر

وقد أغدو وعين الشمس ... في أثوابها الصفر

على جرداء قباء الحشا ... ملهبة الحضر

بسيف صارم الحد ... وزق أحدب الظهر

وظبي يعطف الأزرا ... ر يثنيها على الخصر

على ألطف ما شدت ... عليه عقد الأزر

لهـا طـرف يشـوب الخمـر للنـد مـــــان بــــالخمر

عفيـــف اللحـــظ والأغضـــا ء فـي الصحـو وفـي السـكر

علـــى عـــذراء لـــم تفتـــق بنـــار لا ولا قـــدر

عجـــوز نســـج المـــاء لهـــا طوقـــاً مـــن الشـــذر

كـــأن الذهـــب الأحمـــر فـــي حافاتهـــا يجـــري

وقد يكرر مثل هذه المعاني في شعره متكئا علـى الألـوان الذهبيـة والفضيـة والأرجوانية وعلى ريح المسك والعنبر فيقول:

نمـــجّ مـــن أقداحنـــا قهـــوة تضـــوع بالمســـك والعنـــبر

كأنمـــا أقداحنـــا فضـــة قـد بطنـت بـالذهب الأحمـر

أما قوله:

أمـــا وحرمـــة كـــأس مـــن المـــدام العتيـــق

وعقـــد نحـــر بنحـــر ومـــزج ريـــق بريـــق

فقـــد جـــرى الحـــب منـــي مجـرى دمـي فـي عروقـي

فهو من أجمل ما قيل في هذا المعنى، إذ جعل الحب يجري في العروق مـع الدم، وهو معنى جميل لطيف يجمع فيه بيـن حرمـة الكـأس وعقد النحـر بـالنحر ومزج الريق بالريق، فياله من غزل أشر.

المديح:

لم يصلنا من مدائح أبي الشيص إلا القليل القليـل، ومـا وصـل لا يزيـد عـن بضع مقطوعات قالها في الخليفة هارون الرشيد وعلى الأغلب أنها كانت قصـائد طويلة، إلا أنها ضاعت فيما ضـاع من شـعره وبقيـت منهـا هـذه المقتطفـات التـي حفظتها بطون كتب الأدب، ومن هذه المقطوعات خمسة أبيات يقول فيها:

ملـك لا يصـرف الأمـر والنهـي دون رأيـــه الـــوزراء

حل فـي الدوحـة التـي طـالت النـاس جميعـاً فمـا إليهـا ارتقـاء

وسعت كفه الخلائق جوداً ... فاستوى الأغنياء والفقراء

يابني هاشم أفيقوا فإن الملك ... منكم حيث العصا والرداء

مالهارون من قريش كفي ... وقريش ما لهم أكفاء

صدق والله فما لقريش أكفاء، فهم الذهب الإبريز والفضة النقية المذابة، وهم ملح الأرض وخميرة الكون، ونحن مانزال بخير مادام منهم على وجه الأرض همام جحجاح.

أما أبياته الثلاثة التي وصلت في مدح "هارون الرشيد" عندما ورد الخبر بهزيمة ملك الروم (نقفور) والتي يقول فيها:

شددت أمير المؤمنين قوى الملك ... صدعت بفتح الروم أفئدة الترك

فريت بسيف الله هام عدوه ... وطأطأت للإسلام ناصية الشرك

فأصبحت مسروراً بما كان ضاحكاً ... وأصبح (نقفور) على ملكه يبكي

فأظن أن عظم المناسبة وروعتها لا يمكن أن تكتفي بمثل هذه الأبيات إلا أن يكون ماقيل في مثل هذه المناسبة قد ضاع.

ومن شعره في المديح ثلاثة أبيات قالها في مدح (محمد بن يزيد بن مزيد الشيباني). يقول فيها:

عشق المكارم فهو مشتغل بها ... والمكرمات قليلة العشاق

وأقام سوقاً للثناء ولم تكن ... سوق الثناء تعد في الأسواق

بث الصنائع في البلاد فأصبحت ... تجبى إليه محامد الآفاق

أما جل ما وصلنا من شعر مديحه فهو ماخص به أمير (الرقة)، (عقبة بن جعفر بن الأشعث الخزاعي) الذي انقطع له بعد رحيله عن بغداد ووجد فيه ملاذا منيعاً كفاه الحاجة والسؤال، وثأر له بعد مقتله،وهما قصيدتان ، تقع الأولى في أربعة وأربعين بيتاً محكمة النسج، جزلة العبارة، فخمة الألفاظ، ومطلعها:

مرت عينه للشوق فالدمع منسكب ... طلول ديار الحي والحي مغترب

وفيها وقوف على الأطلال، وبكاء ونحيب لما أصاب الأطلال من بلى وتغير في المغاني وأمجاد في الرسوم وتبدل غزلانها بالغربان الباكية المنتحبة، ثم يعود فيصف ماضي عهده في هذه الرسوم التي كانت مليئة بالنساء الجميلات المائدات كالأغصان والعفيفات اللواتي لا يعرفن الريب ولا يكشفن الستر، وينتقل بعد ذلك لوصف الشراب فيصفها ويجيد بعشرة أبيات هي من أجمل ماقيل في وصف الخمرة في العصر العباسي، ولكنه يعود ليذكر الشيب الذي نهاه عن الجهالة ولهو الصبا، وأصبح بعيداً عن أحداث الزجاجة، وأصبحت الكأس تدور عنه إلى الندمان، ولكنه يعود يقول:

ولو شئت عاطاني الزجاجة أحور   *طويل قناة الصلب منجزل العصب*

لياليناـ بالطف إذ نحن جيرة   *وإذ للهوى فينا وفي وصلنا أرب*

ليالي تسعى بالمدامة بيننا   *بنات النصارى في قلائدها الصلب*

تخالسني اللذات أيدي عواطل   *وجوف من العيدان تبكي وتصطخب.*

ولكنه رغم ذلك، فقد ارعوى للشيب الذي كفكف من غربه بعد أن رمي بالأربعين ووقره قرع الحوادث وما أصابه من نكبات.

ومن العجب العجاب أن هذه القصيدة لا تحتوي على بيت واحد في المديح على الإطلاق، بل يختمها أبو الشيص بأربعة عشر بيتاً في وصف السفينة أو المركب الذي أوصله للممدوح، ووصف السفينة هنا يحكم أيما إحكام سيما أنه يمزج في وصفه بينها وبين الناقة على اعتبار أنها ناقة من خشب ومن حديد لا يدمي متنها ولا صفحتيها عقد رحل ولا قتب، كما أنها لا تشتكي عض النسوع ولا يدمى أنفها من جذب الخشاشة:

يشق حباب الماء حد جرانها   *إذ ما تغرى عن مناكبها الخبب*

إذا اعتلجت والريح في بطن لجة   *رأيت عجاج الموت من حولها يثب*

ترامى بها الخلجان من كل جانب   *إلى متن مقتر المسافة منجذب*

وبدون ريب فالقصيدة من أروع الشعر العباسي على الإطلاق لجودة سبكها ومتانة صياغتها وجزالة ألفاظها، إلا أنها لم توف غرض المديح، وإن كانت وفت وأجادت في رثاء الأطلال وبكاء الأحبة الذين عثر بهم الدهر وأنزل بهم

شتى النكبات، وأجادت في وصف الشراب، وأبدعت في وصف المركب أيما إبداع، وباعتقادي أن المديح قد سقط منها وبقي منها مابقي، فليس من المعقول أن يتجشم شاعر الصعاب ويسير من بغداد إلى الرقة ثم يكتفي بما جاء في القصيدة، وعلى الأغلب أنها كانت قصيدة كبيرة تزيد على السبعين أو الثمانين بيتاً حفظ التاريخ لنا ماتبقى منها.

أما قصيدته الثانية التي بقيت لنا من مدائحه في (عقبة) أمير الرقة فهي قصيدة وعرة المسالك ضادية القافية صعبة المراس، وهي كاملة على ما أظن لأنها استوفت غرضها من المديح- الرائع الجميل والمتناسب مع روح ذلك الزمان ومع قيمه... والشاعر يفتتحها بمطلع يضج بالشكوى ويئن من الحرمان:

أبقى الزمان به ندوب عضاض ورمى سواد قرونه ببياض

وشكواه تأتي من نفور النديم، وإغماض الكواعب عيونهن عنه، وكشف المشيب قناعه وهتك ستاره، ولذا فهو عازم على الرحيل فيخاطب حبيبته (أميمة) بقول جميل:

لا تنكري صدي ولا إعراضي ليس المقل على الزمان براض

حلي عقال مطيتي لا عن قلى وامضي فإني يا أميمة ماض

ثم ينتقل إلى المديح فيمهد له بوصف الركائب التي صرفت للممدوح وجوهها نكبات الدهر:

وركائب صرفت إليك وجوهها نكبات دهر للفتى عضاض

قطعوا إليك رياض كل تنوفه ومهامه ملس المتون عراض

أكل الوجيف لحومها ولحومهم فأتوك أنقاضاً على أنقاض

ثم ينساب المديح رخياً رضياً سلسا مطمئناً لأن الشاعر شعر بالأمان والاطمئنان، فممدوحه شط الأمان والبحر الذي يلوذ به المحتفون لأنه ثبت المقام، والغيث الذي تتوشحه الرياض، والليث الذي يطوف بالغابات والغياض، وهو الذي يشمر للموت ذيل قميصه ويخوض بقناته القانية إلى الموت، إلى أن يقول:

لأبي محمد المرجى راحتا ملك إلى أعلى العلى نهاض

فيد تدفق بالندى لوليه ويد على الأعداء سم قاض

ولكنه لا ينسى من ذكر حاله وكيف أنهضه ممدوحه بعد أن قص جناحه ريب الزمان، وكيف جبر كسره، ثم يعود في الختام ليفديه بنفسه.

والقصيدة كلها جميلة ورائعة ومؤثرة في النفس لما فيها من معاني الذلة والانكسار التي ألمت بالشاعر، ولا يسع قارئها إلا أن يحزن لما آل إليه حال الشاعر بعد رحيله عن بغداد مجبراً وبالرغم عنه، وفي هذا دليل صادق على ماقلناه فيما سبق من المقال عما أصاب أهل بغداد من الذعر والخوف والوحشة إثر وفاة (هارون الرشيد) واقتتال جيوش ولديه (الأمين والمأمون) مما اضطر الشاعر إلى الرحيل عن بغداد إلى الرقة، وشتان مابين المدينتين.

قيمة الشاعر وآراء القدامى في شعره

احتل الشاعر مكانة لائقة به بين شعراء عصره، والمتبقي من شعره يدل على علو تلك المكانة، فكيف لو وصلنا كامل شعره.

وعظمته في زمانه تتجلى فيما قاله عنه كبار رجال الأدب والنقد، فابن المعتز يقول نقلاً عن أبي خالد العامري:"من أخبرك أنه كان في الدنيا أشعر من أبي الشيص فكذبه، والله لكان الشعر أهون عليه من شرب الماءعلى العطشان..."ثم قال: "وكان من أوصف الناس للشراب وأمدحهم للملوك، وكان سريع الهاجس جداً فيما ذكر عنه".

وقال ابن رشيق:"ومن طبقة أبي نواس العباس بن الأحنف، ومسلم بن الوليد وصريع الغواني، والفضل الرقاشي، وأبان اللاحقي، وأبو الشيص".

وقال أبو الفرج الأصفهاني: "وكان أبو الشيص من شعراء عصره".

وذكر ابن كثير:"كان أستاذ الشعر، وإنشاء الشعر ونظمه أسهل عليه من شرب الماء". وقال الخطيب البغدادي: "ولقد كان يفضل على شعراء زمانه، يقرون له بذلك لا يستنكفون، وكان من أعذب الناس ألفاظاً، وأجودهم كلاماً، وأحكمهم رصفاً، وكان وصافاً للشراب، مداحاً للملوك، ودعبل بن علي ابن عمه، ويقال إنه من استقى وحفظ أشعاره كلها فاحتذى عليها".

وقال ابن المعتز أيضاً: "وأشعاره ونوادره وملحه كثيرة جداً"، وقال: "شاعر مطبوع، سريع الخاطر، رقيق اللفظ".

وقال الرفيق النديم في قطب السرور: "وهذا أبو الشيص، نقي الكلام، متميز

الألفاظ، مداح للخلفاء، لاحق للفحول".

أما ابن دريد فيقول:"سألت أبا حاتم عن أبي نواس فقال، قلت فأبي الشيص قال: جد كله، فيه حلاوة وبشاعة كالسدرة التي نفضت ففيها المستعذب والمستبشع..".

وقال البكري في سمط اللآلئ: "وإنما أخمد ذكره وقوعه بين مسلم بن الوليد وأشجع وأبي نواس".

وفي الختام لا يسعنا إلا أن نعجب بهذا الشاعر. فقد كان صادق اللهجة، جيد المعاني، جميل السبك والصياغة، جزل العبارة، رائع الوصف، جميل الألفاظ وخاصة في وصف الشراب والغزل، كما لا يسعنا إلا أن نأسى للشقاء الذي كابده في حياته إبان إقامته في بغداد للظروف التي سادت إثر اقتتال الأخويين العظيمين، والمشاق التي لاقاها في رحلته وتجشمه مصاعب السفر من بغداد إلى الرقة، وركوبه هول البحر ثم ركونه في الرقة إلى مديح أميرها(عقبة الخزاعي) وابتسام الحظ له بعد طول تجهم، إلى أن قضى في حادث أقرب إلى الهزل منه إلى الجد، فسلام عليه في الخالدين...

أما نسبة القصيدة (الدعدية) المعروفة باليتيمة إليه فكلام لا نقبله، وحكمه متروك للزمن ولما يستجد من أخبار طواها الزمان في غياهبه، وهيهات أن يقطع في ذلك بمثل هذه البساطة والسرعة.

■□■

■ المراجع

١ - أبو الفرج الأصفهاني (الأغاني) - الطبعة المصورة، الجزء (16)، تحقيق عبد السلام هارون.

2 - عبد الله الجبوري - ديوان أبي الشيص الخزاعي وأخباره - المكتب الإسلامي - بيروت 1984م.

□□

أبو العلاء المعري ورسالته

الصاهل والشاحج

ما مررتُ يوماً بمعرة النعمان في طريقي إلى مدينة – حلب– أو في طريق عودتي إلى العاصمة السورية –دمشق– إلا ورجعتُ بمخيلتي القهقرى عشرة قرون أو تزيد، لأعرّج على بيت فسيح الأرجاء موطد الأركان عليه سيماء الأبهة والوقار، ذلك هو بيت قاضيها –عبد الله بن سليمان– سليل الأسرة التنوخية الباذخة في عراقة أصولها وأحسابها وأمجادها.

وألمح أول ما ألمح في فناء المنزل طفلاً مجدوراً ذهب مرض الجدري بنور عينيه فأصبح ضريراً يتلمس طريقه بعناء في أرجاء الدار، وإن كانت مخايل الذكاء لا تفارق قسمات وجهه الطفلي الحزين.

هذا الطفل القابع في زاوية من زوايا المنزل الكبيرة العريقة بثوبه الأحمر الفضفاض، هو نفسه شاعر المعرة الخالد وأديبها العظيم وحكيمها وفيلسوفها الذي لم تشهد له ديار العروبة من أقصاها إلى أقصاها مثيلاً.

ومعرة النعمان هذه التي شرفت بإنجاب مثل هذا الرجل العظيم. هي مدينة صغيرة، بل قل بلدة كبيرة تتوسط المسافة بين مدينتي –حلب– و–حماة– وتقوم على بقعة طيبة الهواء معتدلة المناخ، تحيط بها كروم العنب والتين وأشجار الزيتون والفستق، وتعتبر من أجمل مصايف سورية الشمالية. وهي موجودة على بقعتها تلك منذ أقدم الأزمنة، ويقال إنها سُمّيت بمعرة النعمان نسبة

للصحابي الجليل –النعمان بن بشير الأنصاري الخزرجي– الذي فقد فيها أحد أنجاله فحزن عليه حزناً شديداً فقالوا: معرة النعمان– أي –حزن النعمان–،وكان قد ولي –حمص– للخليفة الأموي– مروان بن الحكم– في حين يقول بعض المورخين إن اسمها يرجع إلى أصول سريانية مغرقة في القدم، بمعنى –المغارة–، وقبيلة –تنوخ– التي ينتسب إليها –أبو العلاء– من القبائل العربية اليمانية المشهورة التي يرتفع نسبها إلى قضاعة من –حمير– بن سبأ.

وقد استوطنت في جهات –الحيرة– عاصمة المناذرة في الجاهلية بعد رحيلها عن اليمن في أثر خراب سد مأرب، وكان لها شأن عظيم في زمن –النعمان بن المنذر – ملك الحيرة.

ثم دخلت الإسلام وانتقلت بطون منها إلى الشام واستوطنت في –معرة النعمان– وانساحت من ثم في جميع أنحاء الشام، وغلبت على حكم جبل لبنان، مدة من الزمان إلىأن أطاح بسلطتها الأمير –فخر الدين المعني– في القرن السابع عشر الميلادي.

فأبو العلاء على هذا فرع من دوحة عربية سامقة ومن أسرة ذات علم وفضل وسيادة، ورثت العلم والقضاء والفضل كابراً عن كابر أجيالاً متتالية...

وفي –محمد بن سليمان– عم أبي العلاء يقول –الصنوبري– شاعر حلب المشهور:

بأبي يا ابن سليما ... ن لقد سدت تنوخا

وهم السادة شبا ... ناً لعمري وشيوخاً

ولا يزال فيها بقية من فضل وشعر وأدب إلى يومنا هذا.

مولده ونشأته:

ولد –أبو العلاء– في يوم الجمعة الثامن والعشرين من شهر ربيع الأول سنة 363هـ قبيل مغيب الشمس بقليل، وسمي –أحمد– وكني بأبي العلاء، فقد كان من عادة العرب أن يكنوا أولادهم عند تسميتهم.

ولم تعجب هذه الكنية صاحبها عندما كبر،ونراه يضيق بها حرجاً فيقول:

دُعيت أبا العلاء وذاك مين ... ولكن الصحيح أبو النزول

وفي السنة الرابعة من عمره أصيب بالجدري الذي ذهب بعينه اليسرى، ثم لم تلبث عينه اليمنى أن غشيت بالبياض وفقدت البقية الضئيلة من قوة الإبصار، وألبس ثوباً أحمر أثناء مرضه، فكان اللون الأحمر آخر مارسخ في ذاكرته القوية من ألوان.

أخذ العلم أول ما أخذه عن أبيه، ثم ارتحل إلى -حلب- التي كانت إحدى الحواضر الكبرى آنذاك، وهي تعج بكبار العلماء والأدباء اللغويين والشعراء الذين تحلقوا في بلاط الأمير الحمداني العظيم -سيف الدولة- الذي قال عنه الرواة إنه لم يجتمع بباب الخلفاء بعد -الرشيد- مثل من اجتمع بباب سيف الدولة من العلماء والأدباء ويكفي ذلك البلاط فخراً أنه أنجب للعربية شاعرها الفحل -أبا الطيب المتنبي- مالئ الدنيا وشاغل الناس.

ثم ارتحل عن -حلب- إلى إنطاكية- ثم إلى طرابلس الشام-ماراً- باللاذقية- حيث نزل بدير على أحد الرهبان الذين درسوا الفلسفة، وفيها أنشده بعض الأبيات التي رواها ياقوت الحموي والتي تظهر شيئاً من الحيرة والتردد.

ومن -طرابلس الشام - عاد إلى مسقط رأسه في -المعرة- وأقام فيه زمناً ثم ارتحل إلى بغداد - حاضرة الخلافة العباسية آنذاك، والتي كانت تغص بالمجامع الأدبية والفلسفية، ومجالس المناظرة في الفقه والكلام.

وفي -بغداد- علا صيته وبهر البغداديين منه علم غزير وشعر رفيع وفضل جم. وبالرغم من كل ما لاقاه من ترحيب في -بغداد- فإن الحياة لم تطب له فيها، سيما بعد أن اصطدم بالشريف المرتضى في قصة مشهورة. فعاد إلى المعرة-متذرعاً بمرض أمه والفقر الذي لحقه في -بغداد- وارتحل عن بغداد لست بقين من رمضان سنة 400هـ حزيناً على فراقها، ولم يستمع لأهل -بغداد- الذين ألحوا في استبقائه وبذلوا له المال ومنوه الاماني ورغبوه في ألوان النعمة.

وفي طريقه من -بغداد- بلغه نعي أمه التي أحبها والتي تجشم المصاعب في لقياها، فحزن أشد الحزن وأرسل رسالته المشهورة لأهل المعرة، يطلب فيها منهم عدم استقباله ودخل بيته في المعرة حزيناً كئيباً وحيداً، واعتزل الناس، وعاش على طريقة الفلاسفة والزهاد والمتقشفين.

آثاره:

لم يفضل -أبو العلاء- العزلة إيثاراً للراحة، بل عكف في محبسه على التأليف ونظم الشعر والتدريس لأن شهرته الواسعة جعلت كثيراً من محبي العلم يقصدونه ليتخرجوا على يديه في اللغة والأدب والفلسفة والشعر، وأسعفه الحال على إملاء رسالته وكتبه وشعره على تلاميذه الكثر الذين جاؤوا من أقاصي المعمورة.

ولم تصعد روحه إلى بارئها حتى كان قد ترك ذخيرة من الشعر والأدب والرسائل، ستظل مبعث فخر واعتزاز وإعجاب لأبناء العربية دهوراً طويلة.

ولو كانت تلك الآثار باقية إلى يومنا هذا، لشكلت وحدها مكتبة علانية رائعة لا تدانيها مكتبة شاعر أو فيلسوف عربي على الإطلاق.

وأشهر آثاره الباقية هي:

1- ديوان سقط الزند: وهو ديوان كبير جمع فيه -أبو العلاء- شعر المرحلة الأولى من حياته، وهي مرحلة الشباب، وتضم شعر المديح والرثاء والغزل والموضوعات التقليدية، والدرعيات، وهي قصائد مفردة لوصف الدروع.

2- ديوان اللزوميات: أو لزوم مالايلزم، وهو ديوان شعر كبير يملأ صفحات مجلدين كبيرين وفي هذه القصائد ينثر الشاعر أفكاره وفلسفته ومذهبه في الحياة.

هذا من حيث الشعر أما نثره ورسائله فأشهرها:

1-رسالة الصاهل والشاحج: التي نحن بصدد دراستها في مقالتنا هذه.

2- رسالة الغفران: الذائعة الصيت، والتي وجدت لها صدى عالمياً وخاصة في الشعر الإيطالي، بعد أن استوحاها الشاعر الإيطالي العظيم -دانتي- في ملحمته الرائعة- الكوميديا الإلهية-.

3- رسالة الملائكة: التي أصدرها المجمع العلمي العربي في دمشق.

4- الفصول والغايات.

وغير هذه الآثار المذكورة، هناك فيض من الرسائل التي أملاها -أبو العلاء- ولكنها ضاعت بسبب غزو المغول لمعرة النعمان وتدميرها، وقتل أكثر

من ثلث سكانها، وبسبب احتلال -المعرة- من قبل جيوش الصليبيين وهجرة أهلها إلى حمص وحماة ودمشق.

ولعل أشهر مفقوداته: كتاب القائف وقد تكلم فيه على ألسنة الحيوان وفيه يقول الأديب الأندلسي -محمد بن عبد الغفور الكلاعي-:

"ولأبي العلاء المعري في كتاب -القائف- إحسان مشهور وإبداع كثير موفور، وهو أكثر من كتاب كليلة ودمنة ورقاً، وأفسح طلقاً، وأطيب شميماً وعبقاً".

وكتب في رسائل أخرى لا مجال لذكرها في هذا المقال.

ونعود الآن للكلام على موضوع بحثنا ألا وهو:

رسالة الصاهل والشاحج

وهي من فرائد أبي العلاء أملاها قبل -رسالة الغفران- بخمس عشرة سنة.وتقع في طبعتها الجديدة بتحقيق الدكتورة -عائشة عبد الرحمن - "بنت الشاطئ" في (806) صفحات من القطع الكبير، وصادرة عن -دار المعارف بمصر- في سلسلة- ذخائر العرب- سنة 1975، في طبعة أنيقة مشروحة المفردات ومترجمة الأعلام، وملحقة بها فهارس لأعلام الأشخاص، والقبائل والجماعات، والحرفيين، والبلدان، والأماكن والأيام- الحروب- وأعلام الحيوان، والكتب، والأمثال، والشواهد الشعرية. وهي مصنوعة بالتالي صناعة لا مثيل لها وناهيك بالدكتورة بنت الشاطئ من عالمة مختصة في آثار أبي العلاء - خاصة وأنه قد سبق لها أن أخرجت رسالة الغفران في أكثر من طبعة.

ورسالة -الصاهل والشاحج- كانت في حكم الضائعة، إلى أن عثرت العالمة المحققة الدكتورة -بنت الشاطئ- علىنسختين مخطوطتين أصليتين موثقتين عاليتي الإسناد في -الخزانة الملكية بالرباط -فقابلتهما معاً، وأحيت للناس من جديد هذا الأثر الأدبي العلائي الخالد.

الباعث على إملاء الرسالة:

ورسالة- الصاهل والشاحج- كغيرهامن أدبنا القديم، أمليت وقدمت للأمير -عزيز الدولة أبي شجاع فاتك الرومي والي -حلب- من قبل الفاطميين أيام- الحاكم - وبعض أيام -الظاهر-...

أما الباعث على تأليفها، فكان بناء على طلب أبناء أخي -أبي العلاء- وإلحاحهم لكي يرفع مظلمتهم إلى والي -حلب- بسبب أرض لهم قاحلة، رتب عليها الجباة مالا تستحق من ضريبة، فهي بلغة عصرنا -عرض حال- لا أكثر، يطلب فيه ممليه رفع حيف أصاب أقاربه.

ولم يستخدم -أبو العلاء- في كتابة شكواه، الأسلوب المباشر، بل صاغها على ألسنة الحيوانات على شكل تمثيلية بطلها -الشاحج- أو البغل الذي يكدح في الأرض القاحلة التي لا خير فيها.

ويتخيل -أبو العلاء- "الشاحج" وقد أنطقه الله تعالى بقدرته، وهاهو ذا يجأر بشكواه.

موضوع الرسالة:

ينسحب -أبو العلاء- بلطف، ويترك المسرح للشاحج، وهو معصوب العينين منطوٍ على همومه وهواجسه، ومن بعيد يسمع صهيل فرس مايلبث أن يقترب من الشاحج ويترجل عنه فارس ليرد الماء ويستريح قليلاً قبل متابعة السفر، وعندئذٍ يبدأ الحوار بين "الصاهل" "الحصان" و"الشاحج" "البغل" ويطلب "الشاحج" من خاله "الصاهل" أن يحمل له شكواه المنظومة شعراً إلى "حلب" بعد أن عرف أنه في طريقه إليها.

ولكن "الصاهل" يأنف من هذه الخؤولة المهينة التي يمت بها إليه البغل، فيوسعه تحقيراً وسخرية، ويتطور الجدل بينهما إلى خصومة حادة، يقترح الصاهل أن يحتكما فيها إلى حمامة كانت تحط على غصن قريب...

ويرفض "الشاحج" تحكيم الحمامة، وهي المشهورة بالكذب والحمق والخفة، ويقترح أن يكون الحكم بعيراً في إبل وردت الماء هناك.

وتغتاظ الحمامة مما سمعت من قدح الشاحج فيها، فتسرع إلى الجمل وتلقي عليه القصة،مع قلب كلام البغل فيها وفي الجمل، فيندفع الجمل مهتاجاً فيهجم على الشاحج في حنق مسعور.

ثم تنكشف مكيدة الحمامة، ويعتذر "أبو أيوب" "الجمل" للشاحج ويتطوع لحمل شكواه إلى الحضرة العالية، التي عدل صاحبها عن الشعر إلى نوع آخر من الكلام، لم يفهم"أبو أيوب" منه شيئاً فيظن العته والمس بالشاحج.

أما أخبار مدينة -حلب- فيكلف الشاحج بها "الثعلب" ويطلب منه أن

يتجول في المنطقة، ويأتيه بأنباء -حلب- حرسها الله، وبأنباء أهلها وسكانها وحالهم في جفلة الخوف من غزو الروم، وينقل إليه عن رؤية عين، أخبار السياسة والحرب والبلاط والمجتمع.

ويقوم -الثعلب- بواجبه خير قيام، ويأتي بكافة أنباء الساعة، حتى إذا استوعب الشاحج ما أراد من أنباء، عرف مواقف الرؤساء والقادة.

يعود-أبو العلاء ليظهر على المسرح وينهي التمثيلية ويقدم تحية الختام- للسيد عزيز الدولة وتاج الملة أمير الأمراء، أعز الله نصره-.

قيمة الرسالة:

ترجع الدكتورة -بنت الشاطئ- أهمية الرسالة في مقدمتها اللطيفة إلى كونها -وثيقة تاريخية هامة لفترة حرجة من تاريخ مصر والشام، رواها شاهد من عصرها رصد مايعرفه في التاريخ بجفلة عزيز الدولة، واستوفى أخبارها وأعطى تفسيرها-، ومع أن الدكتورة محقة كل الحق فيما ذهبت إليه، إلا أنني أرى أن أهمية الرسالة وقيمتها تنبعان من الأسلوب العلائي الرفيع الذي لا يجارى.

وقد صدق -الكلاعي- عندما قال: - ليس لإبداع أبي العلاء غاية وانتهاء- ، فمع أن موضوع الرسالة يظهر للوهلة الأولى ساذجاً وبسيطاً، إلا أن أسلوبها سرعان ما يتألف على شكل ساحر يخلب الألباب، وتظهر من وراء هذا الأسلوب شخصية أبي العلاء الفذة، فإذا به كالغواص الماهر الذي يطيل الغوص إلى أعماق البحر ويعود حاملاً معه سني اللآلئ والدراري التي تبهر الأبصار...

وإذا كان -أبو العلاء- لا يغوص إلى أعماق البحر، فإنه يغوص إلى أعماق اللغة العربية، ويعود بمفردات لا أحلى ولا أجمل ولا أصعب، وتراه يصوغها بمهارة فائقة وبأناة العالم المتمكن، الذي لا تظهر على أسلوبه سمات التكلف أو التصنع، وإنما يظهر وكأنه ينثال سلسلاً عذباً على الأرواح الظمأى، فتصدر عنه وقد ارتوت أصالة وذوقاً وعلماً ومعرفة.

فهو وإن كان قد اختار أسلوب الحوار على ألسنة الحيوانات، إلا أنه لم يختر الحوار الجملي القصير، بل يطيل الحديث، فقد يتكلم أحد أبطال المسرحية فإذا به يطنب ويطيل، وينتقل من فكرة إلى فكرة، يستشهدبمثل أو حكمة أو بيت شعر أو بشطرة رجز، فيمتع القارئ أيما إمتاع.

والقارئ والحالة هذه لا يسعه إلا أن يسحر بعبقرية -المعري- وألمعيته وعمق تفكيره واتساع معرفته، فهو كالبحر المحيط الذي لا نهاية لحدوده، إنه حقاً معجزة العرب والعربية وزوبعة الأزمنة والدهور.

وإذا كانت رسالة-الصاهل والشاحج- تنبئ عن قدرات المعري اللغوية الهائلة واطلاعه الفريد، فإنّ استعمال الكناية والتورية والألغاز والمعميات، تجعلها صعبة جداً على القارئ، فهو إن لم يتذرع بصبر -أيوب- غير قادر على إتمام قراءتها،وباعتقادي أن القارئ الأديب المثقف لا يمكنه أن يستوعبها من أول قراءة، ولابد من قراءة ثانية متأنية، حتى يدرك سر عظمة منشئها، وسر عظمة هذه اللغة التي أورثنا إياها أجدادنا الخالدون- رضوان الله عليهم.

والدكتورة -بنت الشاطئ- أدركت ما تنطوي عليه الرسالة من صعوبة، فوعدت بتقديمها في طبعة مبسطة وبلغة أهل هذا العصر، لتعم فائدتها عدداً أكبر من أبناء أمتنا المتعطشين إلى فهم دقائق هذا الكنز الذي لا يثمن.

■□■□

فارس الحروب الصليبية

الأمير الشاعر المجاهد أسامة بن منقذ . . .

على الرغم من أن كتب التراث وأسفار التاريخ التي تملأ الخزانة العربية تطفح بأسماء المشاهير من الأمراء الفرسان والشعراء المجاهدين من أبناء هذه الأمة العربية، وتفيض بأخبارهم الشيقة وسيرهم المشرقة وتنشر بالتالي شذاهم الآسر وعطرهم الفواح، إلا أنني -والحق يقال- ولم أعجب بواحد من كل أولئك العظماء والأبطال المجاهدين مثلما أعجبت بالأمير الشاعر المجاهد (أسامة بن منقذ) فارس الحروب الصليبية وبطل (شيزر).

فمنذ اليوم الأول الذي تعرفت فيه عليه، وجدتني أصفيه الود وأكن له المحبة والاحترام وأجله أيما إجلال.

فما مررت يوماً بحمص أو حماة أو شيزر أو حلب أو معرّة النعمان، إلا ورأيته يطل علي من فوق الأسوار بطلعته المهيبة ويشير إلي:أن أقبل لأحدثك عن الحروب الصليبية. وما مر بي فارس على جواد، إلا وتخيلته على صهوة جواده المطهم الأصيل يتقدم كوكبة من الفرسان ليخوض معركة حامية الوطيس، في نواحي -شيزر، أو -قلعة الحصن- أو عند سفح جبل- أريحا- أو على مقربة من حصن -الأتارب،على مرمى السهم إلى الغرب من مدينة "حلب" الشهباء.

وأنتقل إلى (دمشق) فينتقل (أسامة) معي، فها هو ذا شبحه يطوف في الأزقة والحواري الضيقة، وقد انحنى ظهره وتقوس، وراح يستند على عكازه، وقد ازداد مهابة وأشرق وجهه بكل سيماء الأنس والعبقرية، وأمُرُ به فأحييه،

فيرد التحية بأحسن منها ويستوقفني لينشدني قوله البديع في الشيخوخة:

إذا كتبت فخطـي جـد مضطـرب كخـط مرتعـش الكفيـن مرتعـد

فاعجب لضعف يدي عن حملها قلماً من بعد حطم القنا في لبة الأسد

وأتركه مشفقاً عليه لما آلت إليه حاله في كبره، وأتابع طريقي إلى الجامعة، وما إن أدخل قاعات الدرس فيها، حتى تتراءى لي شخصيته في صورة الأستاذ المحاضر وأغيب عن حسي لا بصره بعين الخيال يلقي علينا الدروس -نحن الطلبة- ويحدثنا عن كريم فعاله في الحروب التي خاضها، كما يقرأ لنا بين الحين والحين فصلاً من فصول كتابه (الاعتبار) ولا ينسى أن يلقي علينا من آن لآن طرفة من فرائد طرائفه يتندر بها علىأولئك الغزاة المتوحشين من ذوي العيون الزرق والشعور الشقراء.

وتضج القاعة بالضحك فأعود إلى صحوي وأدرك كم اشتط بي الخيال.

وأعود لنفسي أسائلها عن سبب هذه المحبة وذلك الإعجاب، فلا أجد عندها الجواب الشافي، فأقول في سري، لعلي أحببت الرجل لشاميته،ولأنني أشركه في الانتساب إلى ديار الشام، وأعيش على الأرض التي درج عليها كما درجت، وتنسم هواءها العليل كما تنسمت، وارتوى من مائها السلسبيل كما ارتويت، ولما لم أجد كلامي مقنعاً ألوذ بالصمت. ثم يخطر لي خاطر جديد فأقول: لعل تلك المودة حاصلة من كون الرجل بطلاً من أبطال إنقاذ الأجزاء السليبة من ديار الشام. ونحن نعيش اليوم نفس المأساة وما أشبه الليلة بالبارحة، فمسقط رأسي في (فلسطين) يرزح تحت نير الاحتلال الصهيوني منذ أكثر من ربع قرن وكأن التاريخ يعيد نفسه،وهانحن اليوم أحوج مانكون والحالة هذه إلى بطل من أمثال (أسامة) يخوض غمار حرب شريفة مقدسة لينقذ المقدسات، ويرد كيد الأعداء ويمسح العار والشنار عن جبين الأقصى المبارك أولى القبلتين، وثالث الحرمين الشريفين.

وأرى تفسيري في هذه المرة مقنعاً أو معقولاً،وعلى كل وأياً كان السبب في نشوء هذه المودة بيني وبين الشاعر الأمير، لا يسعني إلا أن أعترف بأن للرجل في نظري نكهة خاصة، ما عهدتها عند سواه من أعلام ذلك الزمان، وقد استطاع بذكائه ولباقته، أن يحتفظ بنكهته تلك سليمة معافاة، وأن ينقلها إلينا في كتابه الرائع الموسوم بالاعتبار، ويجيد بإعطائنا صورة رائعة لواقع حاله ويرسم لنا شخصيته الفذة الأخاذة، فكتب لحياته خلوداً دائماً ومستمراً إلى آخر

الدهر فمن هو (أسامة بن منقذ).

منشؤه وثقافته:

في مدينة (شيزر) الصغيرة الواقعة على بعد خمسة عشر ميلاً إلى الشمال الغربي لمدينة (حماة) والقائمة على ربوة عالية يحيط بها نهر العاصي من جوانبها الثلاثة، فتبدو حصينة نادرة المثال وتزيدها قلعتها القوية وأبراجها الحصينة، مناعة على مناعة. أجل في هذه المدينة ولد (أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ) يوم الأحد السابع والعشرين من جمادى الأخرى 488هـ في بيت إمارة وسؤدد وفي أسرة مجيدة عريقة ترتفع بأصولها وأنسابها إلى الدوحة الكنانية الباذخة الشماء، ونشأ في حجر أب تقي شجاع لا عمل له إلا الصيد وأعمال الفروسية وقراءة القرآن، ويشتهر (أسامة) منذ حداثته بشجاعته وصلابة عوده وجرأته، فيصبح أثيراً لعمه (أبي العساكر سلطان) أمير (شيزر) وسيدها في تلك الأيام.

ويلمح عليه سيماء الشجاعة ومخايل السيادة فيدخره لمستقبل -شيزر- سيما وأنه كان من غير عقب، فيرعاه أحسن رعاية.

وبحكم نشأته الارستقراطية تلك، كان لابد من التدريب على فنون القتال ومنازلة الأقران، ومصارعة الأسود، والصبر على المشاق واحتمال المصاعب، كما تهيأ له أن يتلقى الثقافة الرفيعة التي يتلقاها أمثاله من الأمراء، فدرس الحديث والفقه والأدب والنحو الصرف واللغة، وحفظ الكثير من الشعر وكلام البلغاء، هذا بالإضافة إلى ماسمعه من أفواه الشعراء المعاصرين، والذين كانوا يقصدون أباه وأعمامه، بشعرهم ونتاج قرائحهم على عادة أهل ذلك الزمان.

كل تلك الأجواء، جعلت (أسامة) يشب على غير مثال، فيتهيبه عمه ويخاف منه على ولده بعد أن رزق الولد بأخرة، فيقلب له ظهر المجن ويتنكر له ويجبره على مغادرة مسقط رأسه -شيزر- ليبدأ حياته من جديد بالتنقل والترحال بين قصور الحكام في طول الوطن وعرضه.

ويذهب أول ما يذهب إلى (عماد الدين الزنكي) في (الموصل) وقد تألق نجمه في قتال الصليبين وينتظم في جنده، ويحارب تحت قيادته.

ولكنه يعود إلى -شيزر- وقد تعرضت لأذى الروم والفرنجة، ليذود عنها ويبلي بلاء حسناً في قتالهم والذود عن حماها ومعاقلها، ولكن عمه يعود فيأمره

بالرحيل هو وأخوته، فيغادرها حزيناً كئيباً ويتوجه إلى (دمشق) ومنها إلى (القاهرة) ثم يعود إلى (دمشق) ويتصل بنور الدين محمود، الذي أكرم مثواه، وبعد إقامة عشر سنوات فيها، يشعر أنه يحتاج إلى أخذ قسط من الراحة بعد طول الشقاء، فينتقل إلى (حصن كيفا) في أقاصي الجزيرة، ويعكف هناك على البحث والدرس والتأليف.

ويعود إلى (دمشق) ثانية، بعد عودة البطل (صلاح الدين الأيوبي) إليها، فيستقبله (صلاح الدين) استقبالاً لائقاً، للصلات الوثيقة التي تربطهما، عندما كانا معاً في بلاط (نور الدين) ويستقر على مقربة من (صلاح الدين) إلا أن الشيخوخة تداهمه وتثقل عليه الحياة، فينتقل إلى رحمة الله في الثالث والعشرين من رمضان 584هـ بعد أن بلغ السادسة والتسعين من العمر، ودفن في سفح (قاسيون) بدمشق على جانب نهر يزيد الشمالي.

آثـــاره

بالرغم من حياة (أسامة) الصعبة والحافلة بالتنقل والترحال وتحمل المشاق والتصدي للنكبات والتعرض للدسائس والمؤامرات، إلا أنه خلف لنا تراثاً غنياً بالشعر والأدب والسيرة والتراجم، وترك لنا زاداً شهياً حافلاً بصنوف الألوان، ومؤلفات تزيد على الستة عشر مؤلفاً بعضها مطبوع وبعضها الآخر ما زال مخطوطاً يقبع في زوايا المكتبات المعتمة.

وإذا كان مجالنا يضيق عن الكلام على كافة آثاره فسنجتزئ بالحديث عن أثرين فقط من أشهر آثاره كتابه (الاعتبار) وديوان شعره.

كتاب الاعتبار

يعد كتاب (الاعتبار) من أجمل ما وصلنا من آثار (أسامة) على الإطلاق. لأن الكتاب بحد ذاته وثيقة من وثائق الحروب الصليبية دونها شاهد عيان بكل صدق وأمانة وإخلاص. وهو عبارة عن مذكرات شخصية وذكريات كتبها صاحبها في أخريات أيامه. وقد بلغ من الكبر عتيا ونيف على التسعين، وسجل فيها مشاهداته وحياته الخاصة ومعاركه الحربية، والوقائع التي شارك فيها، كما استطاع أن يدخلنا معه إلى حصن (شيزر) المنيع، وجعلنا نشاهد بأم أعيننا حال أهله وطرق معيشتهم، وعاداتهم وتقاليدهم، ويصف لنا خوفهم وفزعهم ورعبهم

ساعة الفزع والرعب، ويبصرنا بالشدائد التي عانوها. كما صحبنا إلى صيد الأسود والنمور والحجل والدراج، ووصف لنا تربية الصقور والجوارح، كما وصف لنا تربية الخيول العربية الأصيلة في اصطبلات أبيه وأعمامه وأعطانا صورة رائعة عن المجتمع العربي والإسلامي في تلك العصور، كما وصف لنا حياة العامة والخاصة، وحياة الأفراد والجماعات في حالتي السلم والحرب، ووصف لنا سرعة نجدتهم ومشاركتهم في القتال أو اعتزالهم إياه، واعتكافهم على تلاوة القرآن الكريم ودراسة الحديث الشريف واشتغالهم بالأدب أو الفلاحة أو تربية الحيوان.

كما وصف لنا مرضاهم وأساليب مداواتهم. ولم يكتف بذلك. بل انبرى للفرنج وأعطانا صورة واضحة عنهم وعن عاداتهم، وصور لنا تأخرهم ووحشيتهم وجهلهم وإيمانهم بالخرافات وتأخر الطب عندهم وذكر قلة حيائهم واستهانتهم بشرفهم وأعراضهم، كما أورد بعض الطرائف المضحكة عنهم، وكان في الحقيقة منصفاً في كل ما وصف فقد أعطى القوم حقهم من الشجاعة والإقدام ودقة المواعيد وما إلى ذلك مما يتخلق به الفرنجة.

ولكل هذا جاء كتابه فريداً من نوعه وقد كتبه (أسامة) باللغة (الدارجة) أو الدارجة الميسرة ليسهل فهمه على الناس من بعده.

والكتاب مطبوع أكثر من مرة، وقد أعده للطبع وقدم له العلامة الدكتور (فيليب حتي) وأخرجه لمحبي (أسامة) وعشاق التاريخ منذ عهد قريب.

والكتاب في الحقيقة لم يصلنا كاملاً، فقد وقع الخرم في أوله وأكل بعض صفحاته إلا أن ما وصل منه فيه الكفاية لإعطاء صورة واضحة عن ذلك العصر.

وباختصار، فالكتاب ليس سيرة ذاتية لأسامة، بل هو سيرة ذاتية لمدينة (شيزر) -بما فيها أسامة وأهل أسامة وعشيرة أسامة.

فقد أحسن (أسامة) كل الإحسان في كتابه بالدعاية لنفسه ولأسرته ورسم صورة مشرقة أيما إشراق وأنصفها كل الإنصاف.

وكان كريماً متسامحاً، فلم يقابل الإساءة إلا بالإحسان ولعل النكبة الكبيرة التي تعرض لها (آل منقذ) وجعلتهم يدفنون أحياء تحت أنقاض قصر أمارتهم وهم يحتفلون بختان أمير صغير، أثر زلزال مدمر، جعل (أسامة) مشفقاً عليهم حزيناً على فقدهم فمحا كل ذلك ما ترسب في نفسه من بغضاء.

والكتاب يعد ممتعاً أيما إمتاع، ولا غنى للقارئ الكريم عن العودة إليه وتذوق حلاوته بنفسه، ففي ذلك لذة لا يغني عنها أي وصف.

شعره وديوانه:

نظم (أسامة) الشعر منذ نعومة أظافره، وظل وفياً لفنه الشعري إلى آخر حياته، وشعره يرضع من ثقافته العربية الواسعة، ويمتح من حياته الغنية العريضة، ومغامراته الشيقة، ومصائبه المحزنة، ومن الكوارث الأليمة التي نزلت به فأفقدته الأهل والمال والنشب والولد والأصدقاء والديار، والصحة والعافية والشباب.

فتغزل ووصف، وبكى واستبكى، وتصبر وصابر وجاهد وناضل، وافتخر وتندر ومدح، وعارض وساجل وسمط، وترك لنا ديواناً ضخماً، أعده ورتب أبوابه في حياته، وكان أول المعجبين بشعره الدائم النظر في ديوانه، البطل الخالد الذكر (صلاح الدين الأيوبي) رضي الله عنه وأرضاه.

روى العماد الأصفهاني، قال: "لزمت خدمة السلطان (صلاح الدين) أرحل برحيله وأنزل بنزوله، وكنت ليلة عنده، وهو يذكر جماعة من شعراء الزمان، وعنده ديوان الأمير مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن سديد الملك علي بن منقذ وهو به مشغوف، وخاطره على تأمله موقوف وإلى استحسانه مصروف، وقد استحسن قصيدة له طائية لو عاش الطائيان لأقرّا بفضلها، وأن خواطر المبتكرين لتقصر عن مثلهما، على أن الشعراء المحدثين ما منهم إلا من نظم على رويها ووزنها، واستمد خصب خاطره من حزنها". (الروضتين 1:247).

وشعر أسامة متفاوت في الطول والقصر، فقد تقصر الفكرة ليضمها بيت واحد أو بيتان، وقد تطول فتنوف على التسعين، كما في قصائده التي رثى فيها أهله وعشيرته.

ومؤثرات الثقافة الدينية العميقة واضحة في شعره وكذلك أثر القرآن الكريم والحديث الشريف، وآثار من سبقه من شعراء كالمتنبي والمعري وأبي فراس، ومهيار وقيس بن ذريح وغيرهم، فهو يسمط أشعارهم فيضاهيهم وقد يتفوق عليهم أحياناً بجدة معانيه ورشاقة أسلوبه وعذوبة ألفاظه.

موضوعات شعره

قسم شاعرنا ديوانه إلى أبواب ستة، هي الغزل والأوصاف والملح والمدح والأدب ثم المراثي. وإذا كان غزله عادياً لا حرارة فيه، حيث لا توجع ولا كآبة، ولا لوعة فراق فمرد ذلك إلى أن الرجل كان رجل سيادة ورئاسة وأنى لمثله أن يفرغ لأحاسيس قلبه، وهو يعيش كل تلك الأحداث الصعبة والخطوب المهلكة وطبيعي أن يجيد (أسامة) في مدح الملوك وفي مطارحتهم والرد على رسائلهم الشعرية، وذلك بحكم قربه منهم والعيش معهم يسامرهم في مجالسهم أحياناً ويخوض غمرات القتال إلى جانبهم في أحيان أخرى. ويطلع على ما يدور في قصورهم مس أحداث ومؤثرات.

ولعل أجمل وأصدق ما قاله من شعر، جاء في باب الرثاء، سواء كان هذا الشعر في رثاء ابنه (أبي بكر) الذي توفي صغيراً، أو في رثاء أهله الذين ماتوا جميعاً في حادث الزلزال الرهيب الذي أطاح بشيزر فاسمعه يتفجع:

لم يترك الدهر لي من بعد فقدهم	*قلباً أجشمه صبراً وسلوانا*
بادوا جميعاً، وما شادوا فوا عجبا	*للخطب، أهلك عمارا وعمرانا*
هذي قصورهم أمست قبورهم	*كذاك كانوا بها من قبل سكانا*
بني أبي أن تبيدوا، إن عدا زمن	*عليكم دون هذا الخلق عدوانا*
فلن يبيد جوى قلبي ولا كمدي	*عليكم أو يبيد الدهر ثهلانا*
أفسدتم عمري الباقي علي فما	*أنفك فيه كنيب القلب ولهانا*

ثم يستمطر لهم شآبيب الرحمة ويطلب لهم من الله المغفرة فيقول:

سقى ثرى أو دعوة رحمة ملأت	*مثوى قبورهم روحاً وريحانا*
وألبس اللّه هاتيك العظام وإن	*بلين تحت الثرى عفواً وغفرانا*

ومن روائع تصويره قوله في رثاء ابنه:

أزور قبرك مشتاقاً فيحجبني	*ماهيل فوقك من ترب وأحجار*
فأنثني ودموعي من جوى كبدي	*تفيض فأعجب لماء فاض من نار*

أما (طائيته) التي قالها في الملك الصالح (طلائع بن زريك) والتي لقيت حظوة عند أهل زمانه وخاصة عند السلطان (صلاح الدين) فهي قصيدة عارض فيها قصيدة أبي العلاء المعري:

لمن جيرة سيموا النوال فلم ينطوا ... يظلهم ما ظل ينبته الخط

وهي قصيدة رائعة، وذكرها هنا يعطي القارئ الكريم صورة واضحة جلية عن شعر (أسامة) الذي خاطب به الملوك، وهو فن كان لأسامة فيه قصب السبق.

يقول أسامة:

أجيرة قلبي، إن تدانوا وإن شطوا ... ومنية نفسي أنصفوني أو اشتطوا[3]

عصيت اللواحي فيكم وأطعتم.. ... مقالهم، ما هكذا في الهوى الشرط

ولو علموا مقدار حظي منكم ... وهمي بكم زال التنافس والغبط[4]

إذا كان حظي منكم في دنوكم.. ... صدود وهجر، فالتواني هو الشحط[5]

فيا قلب مهلا لا ترع، إن قربهم.. ... إذا هجروا مثل التنائي إذا شطوا

هواهم هوى لا البعد يبلي جديده.. ... لدينا، ولا عاليه بالهجر ينحط

أحبهم حبي الحياة محبة.. ... جرت في دمي والروح فهي لها خلط[6]

لهم في فؤادي موضع السر والهوى ... فمحض هواهم في سويدائه وخط[7]

يعللني شوقي بزورة طيفهم ... وجيب الدجى عن واضح الصبح منحط

وطرفي يراعي النجم حيران مثله ... إلى أن دعاه في مغاربه الهبط[8]

---

[3] شط: بعد. اشتط: جار

[4] الغبط: غبطت الرجل: إذا تمنيت أن يكون حالك كحاله

[5] الشحط: البعد

[6] الخلط: كل ما خالط الشيء.

[7] وخطه: خالطه

[8] الهبط: التسفل.

عجبت لـه كيـف اهتـدى لرحالنـا ... وكـم للـوى مـن دون تعريسنا سقط[9]

وكيف فـرى عـرض الفـلاة يئـوده ... ويبهره من جانب الحذر أن يخطو[10]

فلما استفاض الفجر كالبحر وانبرت ... نجـوم الدجـى فيـه تفـور وتنغـط

أسفت على زور أتاني بـه الكـرى ... ومـا زارنـي مـذ كـان مسـتيقظاً قـط

إذا ماس خلت ألمس غال عقولنا ... وخامرها من سورة الوجد اسفنط[11]

يقولـون: خـوط أو قنـاة قويمـة ... ومـاقدة مـا ينبـت البـان والخـط

شـبيهة أم الخشـف جيـدا ومقلـة ... بجيـدك تـزدان القلائـد والقـرط

تـروض جـوى جبتـه، وتضوعـت ... ربـا مسـها ممـا تسـربلته مـرط[12]

حكى وجهك الشمس المنيرة في الضحى ... ولـون الدياجي شعرك الفـاحم السـبط

فيا عجبا مـن فـاتر الطـرف فـاتن ... سطا بكمي لم يـزل فـي الوغـى يسطو

فـأرداه فـرد الحسـن فـرداً، وأنـه ... ليرهبـه مـن رهـط قاتلـة الرهـط

أيا سـاكني مصـر، رضانـا لبعدكـم ... عن العيش والأيام- لا تبعدوا سخط

إذا عـن ذكراكـم ظللـت كـأنني ... غريـق بحـار مـا للجتهـا شـط

ونكتفي من هذه القصيدة بهذا القدر وهي طويلة تزيد على الخمسين بيتا آملين أن يكون لنا عودة إليها، إن شاء الله.

ونترك هذا القصيدة الطويلة الرائعة النسج المحكمة البناء، الواضحة المعاني، الجيدة السبك، المترابطة الأجزاء، ونتحول عنها لنتجول في رياض (أسامة) الشعرية العطرة والمليئة بكل ناضج الثمر ويانع الزهر. نقتطف منها ما

---

(9) يشير إلى قول امرئ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل

(10) فرى: شق. والبهر: انقطاع النفس من الأعياء.

(11) الاسفنط: الخمر

(12) المرط: الثوب من صوف أو خز.

يروق البصر ويمتع النظر وينشط الحواس، أو يجعلنا نأسى لما تـؤول إليـه حـال الإنسان إذا خلع برد الشباب وآذنت شمسه بالمغيب..

ونحن واجدون كل ذلك في مقطعاته ذات البيت والبيتين ولعل أجمل معانيـه ما جاء في وصف غربته وترحاله واسمعه يقول:

أهكـذا أنـــا بـاقي العمـر مغـترب | *نـاء عن الأهل والأوطـان والسكن*
لا تسـتقر جيـادي فـي معرسـها | *حتـى أروعهـا بالشـد والظعـن*

أو قوله:

وقد أفردتني الحادثات فليس لـي | *أنيس، ولا في طـارق الخطـب أعـوان*
كـأني من غـير الـتراب نبت بـي | *البـلاد فمـالي فـي البسـيطة أوطـان*
أجـول كمـا جـالت قـذاة بمقلـة | *وأسرى وساري النجم في الأفق حيران*

وإذا كنا نشتم في هذه الأبيات رائحة أبـي تمـام فإننـا بـلا ريـب نشـتم فـي الأبيات التالية رائحة أبي فراس العبقة في خطابه للحمامة، مع الإحساس بالفـارق بين الرجلين، فدمع أبي فـراس غـال فـي الحـوادث، فـي حيـن يرخـص (أسـامة) دمعه، حتى كأنه (متمم بن نويرة) يبكي أخاه (مالكاً).

يقول أسامة:

وهـاج لـي الشـوق القديـم حمامـة | *علـى غصـن فـي غيضـة تـترنم*
دعت شجوها محزونة لم تفـض لهـا | *دموع، ففاضت أدمعـي مزجهـا دم*
فقلـت لهـا: إن كنـت خنسـاء لوعـة | *ووجـدا فـإني فـي البكـاء متمـم*

ونعجب للصدق الأدبي يتقطر من هذين البيتين:

نافقت دهري فوجهي ضـاحك جـذل | *طلـق وقلبـي كئيـب مكمـد بـاكِ*
وراحة القلب فـي الشكوى ولذتهـا | *لو أمكنت لا تساوي ذلـة الشـاكي*

ونتحول عن شعر الترحال والتجـوال لنمعن النظر فيمـا قالـه (أسـامة) فـي الكبر والمشيب وخلع رداء الشباب القشيب من معان حسان فنعجب لقوله:

مـالي رأيـت الثلـج عمـم شـيبه | *قلل الربا، فزهت بحسن نباتها*

راق العيون وشيب فودي راعها — *حتى كأن الشيب وخز قذاتها*

أو قوله وقد رأى شعره الحليق:

رأيت ما تلفظ الموسى، فأسفني — *إذ عاد حالكه كالثلج منثورا*

فقلت إذا رابني تغيير صبغته — *سبحان من رد ذاك الند كافورا*

ومن جميل شعره في الشيب قوله:

قالت وأحزنها بياض مفارقي — *ماذا؟ فقلت تريكة الأيام*

فبكت. وقالت: هل لها من وارد — *أو رائد يوما فقلت: حمامي*

وفي الشيب أيضاً:

نظرت مبيض فودي، فبكت — *ثم قالت: ما الذي بعدي عراه*

قلت هذي صبغة الله، ومن — *يصبغ الأسود مبيضاً سواه*

أما في الزهد والاعتبار والمواعظ، فله مقطعات لا أحلى ولا أجمل، ومن ذلك قوله:

لا ترتج الخلق، فالأبواب مرتجة — *دون الحطام وباب الله مفتوح*

والرزق لو كان في أيدي الأنام أبوا — *أن يشرب الماء من طوفانه نوح*

لكنه في يدي من فضله أبداً — *للطائعين والعاصين ممنوح*

ومن جميل حكمته قوله:

مذ بصرتني تجاريبي ونبهني — *خبري بدهري فقدت العيشة الرغدا*

كأنني كنت في حلم فأيقظني — *خوفي، وآلى على جفني لأرقدا*

والجميل من شعره كثير، فديوانه حافل بكل ما لذ وطاب، وليس من اليسير أن نلم في هذه العجالة بكل شوارده الحسان ومقصاده النبيلة، وحكمه البارعة، وأمثاله الشاردة، ونتاج قريحته الفياضة.

"والحق أن شعر (أسامة) جدير بالحب والتقدير، فهو من النوع الجزل

الفخم، تستمع إليه فيروقك معناه، وتعجبك حلته المتينة النسج، التي لم يضح صاحبها بجودتها في سبيل زخرف أو زينة، فهو من الشعراء الذين ردوا للشعر أسلوبه الرفيع الذي كان له في العصور الزاهرة للشعر العربي، والذي ساعده على ذلك ثقافة واسعة من مأثور الأدب الموروث عن أساطين الأدباء وفحولهم". (من مقدمة الديوان للأستاذ حامد عبد المجيد).

قيمة الرجل وآراء القدماء والمحدثين فيه

تنبع قيمة الرجل من كونه جاء في أيام العسرة والضيق، وأمته أحوج ما تكون إلى أمثاله، فعاش حياته العريضة تلك متجشماً الأهوال في سبيل الذود عن حمى العروبة والإسلام، وترك دوياً شديداً في دنيا البطولة كما ترك تراثاً ضخماً في عالم الأدب والشعر، ويكفيه فخراً أنه خلّد أمارة آبائه وأجداده أثر زوالها، في كتاب ممتع شيق. وجعلها تعيش في أذهان الناس كما كانت في أبان مجدها وعزها.. ولعمري فقد أحيا أمارة (شيزر) بعد موتها، وما كان لأحد أن يحس بها لولا جهده الرائع في كتابه (الاعتبار) ولكل ذلك فقد استحق تقريظ أهل زمانه ومعاصريه الذين أنصفوه.

وصفه (الذهبي) في كتابه (تاريخ الإسلام) فقال:

"أحد أبطال الإسلام ورئيس الشعراء الأعلام".

أما (ياقوت الحموي) فيقول في كتابه (معجم الأدباء):

"وفي بني منقذ جماعة من أمراء شعراء، لكن أسامة أشعرهم وأشهرهم".

وقال (العماد الأصفهاني): "وأسامة كاسمه في قوة نثره ونظمه".

أما الحافظ بن عساكر فيقول: "اجتمعت به بدمشق وأنشدني قصائد من شعره 558هـ وقال (أبو عبد الله محمد بن الحسين بن الملحي): إن الأمير مؤيد الدولة أسامة شاعر أهل الدهر مالك عنان النظم والنثر متصرف بمعانيه لاحق بطبقة أبيه، ليس يستقصى وصفه بمعان، ولا يعبر عن شرحها بلسان.

فقصائده الطوال لا يفرق بينها وبين شعر ابن الوليد، ولا ينكر على منشدها نسبتها إلى لبيد. وهي على طرف لسانه بحسن بيانه غير محتفل بطولها ولا يتعثر لفظه العالي في شيء من فضولها، وأما المقطعات فأحلى من

الشهد وألذ من النوم بعد طول السهد في كل معنى غريب وشرح عجيب" (تهذيب تاريخ ابن عساكر 401/2).

وإذا كان أسامة قد احتل هذه المنزلة الرفيعة التي يستحقها في نظر معاصريه، فإن للمحدثين آراء مماثلة في الرجل، ولعل أشهرها ما جاء في مقدمة كتاب (الاعتبار) للدكتور (فيليب حتي) الذي يقول: "عاش أسامة شهماً فارساً، وهاجر مجاهداً مقاتلاً، ولمع أديباً وشاعراً وتلهى صياداً، وقضى الكثير من سنيه جواباً، نشأ على جوار العاصي قرب حماة وصرف معظم شبابه في البلاط النوري بدمشق، وفي قصر الخليفة الفاطمي بالقاهرة، وغالب سني كهولته في الدار الأتابكية بالموصل وفي حصن كيفا على دجلة. زار بيت المقدس في فلسطين. وحج إلى الحرمين، وتنقل بين معظم العواصم الإسلامية من مدنية ودينية عاشر نور الدين وتصيد مع زنكي، وتعرف شخصياً ببوهمند وتنكرد وفولك من الإفرنج الصليبيين.

آخر الإفرنج -ولا سيما الفرسان منهم- في حين السلم. وما قاتلهم في حال الحرب.

لم يشهد القتال في شيزر وحماه مدن سورية الشمالية فقط بل في عسقلان وبيت جبريل من أعمال فلسطين، وفي شبه جزيرة سيناء ومصر وفي ديار بكر والموصل، فلا غرو أن أصبح اسمه في التواريخ الإسلامية مرادفاً للبطولة.

ولو أن أسامة عاش اليوم لكان بلا ريب عضواً عاملاً في المجمع العلمي العربي، ولكان بيته (صالوناً) للأدب بدمشق. ولراسل -الهلال- والمقطم- ولنالت جياده العربية جوائز السبق في بيروت. ولكان بلا تردد في أثناء الحرب العظمى ديون فرقة من المتطوعة تولى قيادتها بنفسه" (مقدمة كتاب الاعتبار).

هذا هو الأمير مجد الدين مؤيد الدولة (أسامة بن منقذ) بطل شيزر وفارس الحروب الصليبية، وأمير السيف والبيان، وقد جهدنا في مقالنا هذا لإعطاء صورة واضحة عنه فإن أفلحنا فالفضل يعود لشخصيته هو، وإن أخفقنا وأخطأنا التوفيق، فحسبنا الله ونعم الوكيل وسلام عليه في الخالدين.

□■□■

السهروردي

شهيد مذهب الإشراق

كم يكون الاستشهاد رائعاً عندما يكون من أجل عقيدة راسخة في الأعماق. لا يملك صاحبها للدفاع عنها -إلا عمق الإيمان- وقوة العارضة والحجة وذلاقة اللسان. وما أبشع القتل عندما يكون من ظالم جاهل غشوم، يملك مع جهله كل وسائل البطش من مال وجاه وسلطان.. فالطامة الكبرى هي عند ذلك.

وإذا عدنا إلى أسفار التاريخ نتنسم أخبارها. وجدنا في خباياها ألف قصة وقصة، تفوح من أردانها روائح الظلم والغدر وإزهاق الأرواح البريئة دونما أي ذنب- حتى كأن تلك الأرواح ما خلقت إلا ليجرب الظالمون أسلحتهم في إزهاقها وإخماد أنفاسها إلى الأبد.

ولا يسعنا إلا أن نترحم على تلك النفوس التي أزهقت ظلماً في حين نصب جام غضبنا على أولئك الظالمين الجائرين. وإن يكن الزمان قد غيب الجميع.. إلا أن ميزان العدالة يظل منصوبا قائماً حساساً في النفوس وتظل تلك النفوس قادرة على الاقتصاص حتى من أولئك الذين واراهم التراب ولفظهم التاريخ.

من هؤلاء "السهروردي" الذي قتل ظلماً وأزهقت روحه عسفاً في قلعة (حلب) الخالدة على الدهر. وبأمر من حاكم ظل التاريخ العربي يعتبره في طليعة شرفاء ومجاهدي هذه الأمة الخالدين.

فمن هو السهروردي:

هو شهاب الدين أبو الفتوح يحيى بن حبش بن أميرك السهروردي ، نسبة إلى بلده التي ولد فيها وهي قرية من قرى (زنجان) في العراق العجمي (أذربيجان).

ميلاده وثقافته

ولد شهاب الدين في أواسط القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي سنة 549هـ 1154م. وقضى طفولته في قريته وفيها تلقى العلوم الدينية الإسلامية، وبعض العلوم العقلية التي مكنته من شق طريقه في دراسة الفلسفة والتعمق فيها. ومن ثم الانغماس في حياة صوفية خالصة قائمة على التجريد تدرب عليها منذ نعومة أظافره، فقد حفظ القرآن الكريم، ودرب على تلاوة الأوراد وجعل يؤدي الصلوات الخمس بفرح عميق، لا يمنعه برد الشتاء القارس في تلك المناطق الباردة، أن يحذو حذو شيوخه وأبيه من القيام في ساعة مبكرة لأداء صلاة الفجر. بل صلوات التهجد والغفران وقيام الليل، كانت الصلاة عنده وهو صغير ليست سجوداً أو تلاوة سورة فحسب بل اتجاهاً كلياً نحو الخالق أن يأخذ بيده إلى طريق الخير. ويوجه خطواته نحو السراط المستقيم(1).

ومن هنا بدأت بواكير زهده وتصوفه تظهر بوضوح، بعد أن أخذ يصاحب العلماء والحكماء- ويطلع على بعض الفلسفات الهندية والفارسية والأفلاطونية- وكانت بلدة (سهرورد) مرتعاً خصباً لمثل تلك الدراسات والفلسفات.. فقد خرجت منها كوكبة من العلماء النوابغ في تلك العلوم.

تنقله في البلدان

يقول تلميذه (الشهرزوري) عنه: "كان قدس الله روحه كثير الجولان والطوفان في البلدان -شديد الشوق إلى تحصيل مشارك له في علومه ولم يحصل له. قال في: "آخر المطارحات": وهو ذا قد بلغ سني إلى قريب من ثلاثين سنة، وأكثر عمري في الأسفار والاستخبار والتفحيص عن مشارك مطلع على العلوم ولم أجد من علمه خبر عن العلوم الشريفة ولا من يؤمن بها"(2).

فها هو ذا في (مراغة) يشتغل بالكمة على "مجد الدين الجيلي" ثم سافر إلى

أصبهان ويقرأ فيها كتاب "البصائر النصيرية" لابن سهلان الساوي -ونراه يصحب الصوفية ويستفيد منهم، ويحصل لنفسه ملكة الاستقلال بالفكر والانفراد حتى يصل إلى غايات مقامات الحكماء ونهاية مكاشفات الأولياء(3).

ثم ينتقل إلى (ماردين) ويتصل بشيوخها وعلى رأسهم (فخر الدين المارديني) ويتتلمذ عليه ويستفيد منه، وكان الشيخ (المارديني) يقول: "ما أذكى هذا الشاب وأفصحه، ولم أجد مثله في زماني، إلا أنني أخشى عليه لكثرة تهوره واستهتاره، وقلة تحفظه أن يكون ذلك سبباً في تلافه"(4).

وقد يلاحظ المرء منذ البداية أن الثقافة التي تهيأت للسهروردي كانت ذات طابعين: أحدهما علمي قوامه الفقه والأصول والكلام والحكمة النظرية -والآخر طابع عملي قوامه التصوف وما فيه من أعمال الرياضة وأحوال الإرادة، وهي عند الصوفية، الخلاص سبيل السالك إلى تصفية نفسه وتنقية قلبه وجلاء بصيرته بحيث يصبح أهلاً لتلقي الأنوار وتجلي الحقائق والأسرار(5)".

في ميافارقين

ترك (ماردين) بعد أن استوى عوده قائماً وامتلك مفاتيح الزهد والتصوف والحكمة -وبعد أن ألف كتابه (الغربة الغريبة) ونثر فيها حكمه وأقواله.. ثم يظهر فجأة في (ميافارقين) وهي أشهر مدن (ديار بكر) آنذاك. رث البزة لا يلتفت إلى ما يلبسه ولا له احتفال بأمور الدنيا -ويقول (سديد الدين محمود بن عمر المعروف بابن رقيقه:

"كنت أنا وإياه نتمشى في جامع (ميافارقين) وهو لابس جبة قصيرة -مصرية زرقاء- وعلى رأسه فوطة مفتولة وفي رجليه زربول. رآني صديق لي فأتى إلى جانبي وقال: "ما جئت تماشي إلا هذا الخربندا" (تعني الحمار بالفارسية) فقلت له اسكت هذا سيد الوقت شهاب الدين السهروردي -فتعاظم قولي وتعجب ومضى(6).

كانت "ديار بكر" آنذاك تحت حكم "الاراتقة" الذين خصصوا الرواتب لبعض العلماء والأطباء، وولوا المناصب لأولئك الذين ألموا بأطراف عديدة من الثقافة لذا قصدهم عدد من مشاهير العلماء والأدباء والأطباء وعلى رأسهم أسامة بن منقذ، وصفي الدين الحلي -ومحمد بن جابر الأندلسي وجمال الدين السنجاري وبرهان الدين الموصلي.

أما شهاب الدين السهروردي -فقد اتصل بالأمير عماد الدين أبي بكر بن قرا أرسلان الارتقي صاحب "خربوط" وألف له كتاباً نال شهرة واسعة ومكانة خاصة -سماه "الألواح العمادية" وأهداه إياه.

ويذكر ابن أبي اصيبعة.. أن شهاب الدين السهروردي قد مر بدمشق "وهو في طريقه إلى حلب" وفي القابون قام ببعض أعمال السيمياء التي أذهلت الجميع.

حلب نهاية المطاف

في عام (579هـ) وصل شهاب الدين إلى مدينة (حلب) في نهاية مطافه، وكان عليها آنئذ الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي، ونزل في مدرسة "الجلاوية" واستطاع بذكائه وحكمته وقلة مبالاته أن يجذب أنظار جميع الفقهاء والكبراء إليه..

وخاصة بعد أن كسر فصاً من الجوهر بقدر حجم بيضة الدجاجة يساوي ثلاثين ألف درهم رداً على من أرسل إليه جديداً يليق به كهبة أو صدقة وكان من بين أولئك الذين نبه أنظارهم إليه.. الملك الظاهر نفسه الذي اجتمع به وأخذه معه إلى القلعة وصار له شأن عظيم، إلا أن مناقشاته المستمرة مع فقهاء سائر المذاهب، وتعجيزهم واستطالته عليهم.. جعلهم يتعصبون ضده ويفتون في هدر دمه حتى قتل.

مقتله

لم يكن السهروردي يكف عن المماحكة مما أثار غيظ فقهاء حلب وحفيظتهم، فتألبوا ضده وشنعوا عليه، حتى اضطر الملك الظاهر إلى عقد مجلس من الفقهاء والمتكلمين ليباحثوه ويناظروه، ولكنه ينتصر عليهم بحججه وبراهينه وأدلته مما حدا بالملك إلى تقريبه وتخصيصه، فازداد بذلك غيظ الفقهاء ورموه بالإلحاد والزندقة، وبلغ الخلاف ذروته حول -السهروردي- فكتب الفقهاء بذلك إلى الملك الناصر صلاح الدين.. فبعث بدوره إلى ابنه الملك الظاهر كتاباً بخط القاضي الفاضل يقول فيه:

"هذا الشهاب السهروردي لا بد من قتله ولا سبيل أنه يطلق، ولا يبقى بوجه من الوجوه. اختلف المؤرخون في طريقة قتله: فابن خلكان يتفق مع ياقوت الحموي في القول أنه حبسه ثم خنقه أما بهاء الدين ابن شداد قاضي حلب فيقول

بأن السلطان أمر بقتله ابنـه وصلبه أياماً وكـان ذلك فـي شـهر ذي الحجـة عـام 587هـ. أي بعد إقامة في حلب دامت ثماني سنوات، وكان في الثامنـة والثلاثين من عمره يوم قتل.

أما الذهبي فيقول: إن السهروردي خبر بالكيفية التي يريد الموت فاختار أن يموت جوعاً وقيل إنه أنشد عندما تحقق من القتل قوله:

أرى قدمـــي أراق دمـــي

وهـــان دمـــي فهـــا ندمـــي

أما صاحب أعلام النبلاء وابن أبي أصيبعه فقد ذكرا أنه قال عند وفاته وهو يجود بنفسه:

قـــل لأصحـــاب رأونـــي ميتـــاً

فبكونـــي إذ رأونـــي حزنـــاً

لا تظنونـــي بـــأني ميـــت

ليـــس ذا الميـــت واللـــه أنـــا

أنـــا عصفـــور وهـــذا قفصـــي

طـــرت عنـــه فتخلـــى رهنـــاً.

وأنـــا اليـــوم أنـــاجي مُـــلأ

وأرى اللّـــه عيانـــاً بهنـــا

وقالا بأنه دفن بظاهر مدينة حلـب.. ضمـن مسـجد خـارج بـاب الفـرج وقـد وجد مكتوباً على قبره.

قـد كـان صـاحب هـذا القـبر جوهـرة

مكنونـة قـد براهـا اللّـه مـن شـرف

فلـــم تكـــن تعـــرف الأيـــام قيمتـــه

فردهـــا غـــيره منـــه إلـــى الصـــدف

هذه خلاصة سريعة لحياة هذا الصوفي الرائع من رجال القرن السادس الهجري، الذي قادته جرأته ولا مبالاته وتهوره وعناده إلى الموت في ريعان شبابه واكتمال خلقه وخلقه ومعارفه، وبعد أن قدم تراثاً فلسفياً وشعرياً سيظل خالداً إلى أبد الدهر. ونكتفي هنا بهذا القدر لنعود في مقالة ثانية إن شاء اللّه، لنتحدث عن كنه فلسفة الإشراق التي كانت من إبداعات هذا الشهيد العظيم.

❑■❑

■ المراجع

1-سامي الكيالي -نوابغ الفكر العربي- السهروردي ص15 دار المعارف بمصر 1966

2-دائرة المعارف الإسلامية 30/12.

3-الشهرزوري -نزهة الأرواح وروضة الأفراح

4-ابن أبي اصيبعه -عيون الأنباء في طبقات الأطباء

5-ابن خلكان -وفيات الأعيان 270/6 تحقيق إحسان عباس -دار صادر بيروت 1977

6-ابن أبي اصيبعه -عيون الأنباء (646-645) مكتبة الحياة بيروت 1965

7-عبد الرحمن بدوي -شخصيات قلقة في الإسلام -وكالة المطبوعات -الكويت 1978

8-أحمد مصطفى الحسن -ديوان الإمام شهاب الدين السهروردي- دار يعقوب للطباعة والنشر.

❑■❑■

الشيخ ظاهر العمر الزيداني

فارس بلاد الشام في القرن الثامن عشر

عندما أفرغ (أحمد الدنكزلي) رصاص (طبنجته) في جسم (ظاهر العمر)، ثم استل سيفه واجتز رأسه، لم يكن يعرف أية جريمة اقترفتها يداه الآثمتان، لقد أنهى حياة بطل عظيم من أبطالنا، وحطم أسطورة من أجمل أساطير بلادنا. ودمر فارساً من فرساننا الميامين سطع كالشهاب في سماء (فلسطين) ولم يخر إلى الأرض. إلا بعد أن تألق نوره طيلة نصف قرن من الزمان.

كان القاتل مغربياً من (توهرت) وفد إلى بلاد الشام متعيشاً بعد أن أضناه عمله الشاق كحطاب في بلده. واستقر في خدمة (أحمد الحسين) سيد قلعة (جدين) على سواحل سوريا الجنوبية إلى الشمال من عكا.

وشاء له الحظ أن ينتقل من.خدمة (أحمد الحسين) إلى خدمة (ظاهر العمر) يوم استولى (ظاهر) على قلعة (جدين) واستلبها من صاحبها بعد مقتله فقد أعجبته من (الدنكزلي) فتوته فاختاره لنفسه، وعينه آغا على المغاربة الذين جندهم لخدمة سيده الجديد. بعد أن أغدق عليه المال والهدايا والهبات، ورفع قدره. ووفر له الزعامة والجاه، وجعله أحد قادة جيشه، الذي يعتمد عليهم في ساعات الضيق وأخلص (الدنكزلي) لسيده الجديد. وخدمه طيله أيام عزه بشجاعة منقطعة النظير. والتاريخ يذكر له ذلك الإخلاص وتلك الشجاعة، يوم أجبر سادة (جبل عامل) على عقد صلح دائم مع سيده (ظاهر)، وبعد أن كانت الحرب سجالاً بينهما، يوم غافل القوم وهاجم معاقلهم في (تبنين) وهم مشتغلون بالحرب واختطف أولادهم وجاء بهم إلى سيده مأسورين ورهائن، فأشاع بذلك العمل الجريء الذعر في نفوس آبائهم، فهرعوا إلى عقد الصلح.

ولكنه فقد صبره في أخريات أيامه، وفي أحرج الأوقات التي واجهها سيده، إذ هبّ كالمجنون فقتل سيده، واجتز رأسه في وقت كان سيده أحوج ما يكون إلى عونه.

ولكنه سرعان ما دفع حياته ثمناً لتهوره ونال جزاء خيانته من (حسن باشا الجزائري) أمير البحر الذي كان يحاصر (عكا)، ليستخلصها من يد (ظاهر).

إذ لم يكد يصل برأس (ظاهر) إلى (حسن باشا) وكان الرأس ملطخاً بالدم والتراب، حتى أمر (حسن باشا) بغسله وجعله على كرسي أمامه، وقد ظهرت على وجهه أمارات الغم والحزن، وجعل يفكر وهو مطرق إلى الأرض ويلعب بلحيته والدنكزلي واقف لا يجسر على الكلام، ثم رفع (حسن باشا) رأسه قليلاً والتفت إلى الدنكزلي وقال: من أي بلاد من المغرب أنت؟

قال: من توهرت

قال له: وما كانت صنعتك هناك؟

قال: كنت حطاباً

قال له: وكم سنة صار لك في خدمة (ظاهر)؟

أجابه: ما يزيد على أربعين سنة

فقال له: وكم كان دخلك منه؟

أجاب: كان دخلي في أول سني خدمتي عنده قليلاً، لكن لم يقل عن مائتي كيس لي ولاتباعي.

فقال له: تأكل خبز إنسان أربعين سنة، ودخلك منه بهذا المقدار، وتخضب سيفك بدمه؟ لينتقم اللّه مني، إذا كنت لا أنتقم منك لظاهر، ثم أمر من كان بحضرته، فخنقوه وصلبوه على ساري المركب.

عرفنا الخادم فمن المخدوم

هو ظاهر بن عمر بن زيدان الحسني، إذ يرتفع بأصوله إلى (بني زيد بن الحسين) رضي الله عنهما. وكان مسكن آبائه وأجداده في (المدينة المنورة)، إلا أن جده (زيدان) وصل إلى بادية الشام على رأس جماعة من بني أسد. ونزل في برية (معرة النعمان) بين حلب والشام ومن هناك توجهت العائلة جنوباً لتستوطن في (طبرية)، هرباً من تسلط بني أسد وجلافتهم، ثم ارتحلت عن (طبرية) إلى

(عرابة البطوف) من بلاد (صفد). بعد أن أدمى (ظاهر) وقتل رجلاً من أهل (طبرية) لاعتدائه على فتاة.

وفي (عرابة البطوف) أخذ نجم أبيه في الصعود، إلى أن مات مورثاً سمعته الطيِّبة لابنائه، وخاصة لولده (ظاهر) الذي استطاع بحنكته ودهائه وحكمته وشجاعته أن يحتل مكانته اللائقة به تحت الشمس بأسرع من البرق.

المولد والنشأة والتعليم

ولد ظاهر عام 1689م في الديار الصفدية. وفيها نشأ وتعلم القرآن الكريم والنحو والأدب العربي على الشيخ (عبد القادر الحفناوي) وظهرت عليه مخايل الذكاء والنجابة منذ صباه، مات أبوه وهو صغير فرعاه أخوه الأكبر (سعد العمر) الذي كان مثال الحرص على مستقبل شقيقه، سيما بعد زيارة الشيخ (عبد القادر الشويكي) لهم في منزلهم (بطبرية) والذي كان يعمر بالضيفان في كل الأوقات، واختباره (ظاهراً) في القرآن والعلوم والأدب. وإبدائه إعجاباً شديداً به، نقله بدوره لسعد وأوصاه خيراً به متنبئاً له بمستقبل عظيم.

زواجــــه

وبقي (سعد) وأخوه (ظاهر) يترددان إلى دمشق و(حلب) لقضاء حوائجهما وللمتاجرة حتى كثرت أموالهما وعظم غناهما.

وفي إحدى زياراتهما لدمشق، التقيا بالشيخ (عبد الغفار الشويكي) الذي رحب بهما كل الترحيب، واستضافهما في منزله بدمشق أياماً ثلاثة، وكان (ظاهر) قد أصبح في الخامسة والعشرين، وهناك عند مضيفه التقى برجل مفضال من آل البيت، فتزوج (ظاهر) ابنته (الست نفيسة) التي ارتحلت مع زوجها إلى (طبريا) بعد وفاة أبيها، وبعد أن ورثت عنه مالاً كثيراً وعقارات. ولكنها لم تستطب الحياة في (طبريا) أو في (عرابة) لعدم وجود نساء شاميات فيهما، ففتح لها (ظاهر منزلاً في الناصرة، وجعل يتردد عليها من حين لآخر، ولكنها لم تنجب أولاداً لأنها كانت عاقراً، فتزوج نساء أخريات، أنجب منهن عدة أولاد.)

الصعود

تمكن (ظاهر) بمساعدة قبيلة (الصقر) من الحصول على ولاية طبريا من والي صيدا بعد مناورة رائعة من (ظاهر) وبعد طرد متسلمها.. وإرسال الهدايا الثمينة للوالي والتي كان من ضمنها فرس مشهورة من خيل الصقر..

وفي (طبريا) أخذ (ظاهر) يعد العدة لإنشاء منطقة نفوذ له تتسع لطموحه فبدأ أول ما بدأ باستدعاء أولاده (صليبي) و(عثمان) و(سعيد) و(علي) للحضور إلى طبريا كما قصده أقاربه عندما سمعوا بتوفيقه وحصوله على ولاية طبريا. وجعل يحصن طبريا ويمد نفوذه إلى البلاد المجاورة بموافقة والي صيدا مدعياً أنه يريد أن يحميها من هجمات البدو المنتشرين في المنطقة، وخاصة قبيلتي (التركمان) و(الصقر).

ومن (طبريا) امتد نفوذه إلى (صفد) وبلادها، ثم عقد حلفاً مع (ناصيف النصار) زعيم جبل عامل.

ولما اطمأن إلى سلامة حدوده الشمالية قفز فجأة للاستيلاء على (عكا) فانتزعها من متسلمها بحد السيف، وأخذ يجدد مبانيها وأسوارها وحصونها وجعل إقامته فيها...

ومن (عكا) أخذ يوسع نفوذه باتجاه (حيفا) و(الطيرة) و(الطنطورة) حتى اصطدم مع الشيخ (إبراهيم الجرار) في الديار النابلسية الذي ألب عليه قبائل الصقر، ولكنه صمد للمؤامرة وحارب المتآمرين وتغلب عليهم بعد أن أوقعهم بين كمينين بمعونة أهالي الديار الصفدية، فدحر النابلسيين وتغلغل في بلادهم حتى وصل إلى قلعة (سانور) وارتد عنها ظافراً منصوراً.

المؤامرات تتجدد

لم يستقر الهدوء طويلاً في مملكة (ظاهر) التي اتسعت الآن فشملت نصف فلسطين تقريباً، لأن والي الشام (سليمان باشا) ابن عم (محمد باشا) والي صيدا وهما من آل العظم أخذا يتوجسان خيفة من (ظاهر) فحشدا جيشاً كبيراً وحاصراه في (طبرية).. لكن أخاه سعداً استطاع بدهائه أن يدبر مكيدة فيقتل (سليمان باشا) بالسم، ويهيء لفرسان (ظاهر) أن يهزموا الجيش المحشود لقتالهم وكان من نتائج هذه المعركة، حصول (ظاهر) على ولاية (صيدا).

النزاع بين الأهل

ابتلي ظاهر بأولاده، الذين كثيراً ما كانوا يطمعون به، ويثورون عليه، وخاصة ابنه عثمان الذي كان دائم الشغب على أبيه، ولكن ظاهراً كان يبدد ذلك الشغب بالحيلة حيناً وباستعراض القوة أحياناً أخرى، وبطرد الأبناء إلى خارج منطقة نفوذه في بعض الأحيان.

فقد تآمر عليه عثمان وعلي وحتى أخوه الناصح الأمين ووزير دولته سعد ثار عليه أيضاً وحاول أن يضم إليه ابن عمه (محمد العلي) قائد جيش ظاهر الذي فضح المؤامرة، ورفض التآمر على ابن عمه ظاهر.

ولكن هذه المؤامرات ما كانت تفت في عضد ظاهر الذي كان طموحه لا يقف عند حدود.. وكانت نزعته التحررية من النير العثماني لا تغيب عن ذهنه.

الإيقاع بعرب الصقر ومصرع الجهجاه

لم تعتد القبائل البدوية على الخضوع، فهي سرعان ما تعود إلى الفوضى والسلب والنهب كعادتها.. وقد استغل (عرب الصقر) فترة سوء العلاقات مع ظاهر فهاجموا المحمل الذاهب إلى الحج وانتهبوه بالاشتراك مع فرسان قبائل السردية وبني (كليب) وبني (عقيل) مما أثار ظاهراً.. فحبك خطته على أن يسترضي القبائل البدوية باستثناء (قبيلة الصقر) التي صمم على استئصال شرورها وجذورها، وخاصة بعد أن قتلت حفيده (الجهجاه) ابن ابنه (عثمان) وكان فتىً محبوباً لديه وقد قتل في المعركة مع الصقريين، فجزع جده عليه جزعاً شديداً، ولما علم أن قبيلة (الصقر) هي التي قتلته التهب حزناً عليه وأخذ يمزق ثيابه ويعفر وجهه بالتراب ويبكي ثم ركب وأمر عساكره أن تركب، وأقسم أن لا ينزل عن جواده حتى يأخذ بثأره، ولشدة ما أظهر من الحزن لم يستطع أحد أن يمسكه أو يعترضه.

وسار بعسكره إلى أن أدرك (الصقر) بغتة وأصلاهم حرباً شرسة فقتل الأطفال والنساء والشيوخ وبقر الحوامل وقتل أكثر من سبعة وعشرين من كبار مشايخهم حتى جعلت الخيل تخوض في الدم، وما نجا منهم إلا من هرب واختفى في المغاور والكهوف. وعاد ليقيم عزاء للجهجاه ما سمع بمثله إلا عند الخلفاء والسلاطين وقد دام العزاء أربعين يوماً ليلاً ونهاراً، وكانت النساء تخرج كل يوم صابغة أيديها وأرجلها بالنيلة ويحملن السيوف المنكسة ويرقصن حزينات ويندبن

الجهجاه.. فيما كان الرجال يلبسون الحلل السوداء ويسيرون بالخيل المغطاة بالسواد. وعلى كل جواد سيف منكس فيما وفدت إليه مشايخ البلاد وأعيانها يعزونه بموت الجهجاه.

كذلك فعل يوم قتل حفيده (الكنج) قتله عمه سعيد في عراك عائلي.

المؤامرات تتوالى

عاد ابنه عثمان ليثور عليه طالباً منه ولاية (شفا عمرو) واستطاع أن يؤلب دروز منطقة (صفد) على أبيه وأن يحشدهم للقتال معه فجاؤوا وعسكروا في قرية (أبي سنان) مقابل (عكا). ولكنه حشد ولديه (أحمد) و(علي) وفاجأ المتآمرين، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وهرب عثمان إلى عرب الصقر واحتمى بهم ولما طلب ظاهر منهم أن يطردوه رفضوا طلبه ذلك بإباء عجيب، إلا أن وزير (ظاهر) (إبراهيم الصباغ) استطاع أن يعيد المياه إلى مجاريها بين الأب والابن وعاد عثمان إلى أبيه خاضعاً مطيعاً راجياً منه السماح والعفو.

وجاء دور علي

كان علي أشجع أولاد ظاهر وأبسلهم، وساعد أباه في جميع حروبه مع أعدائه وخصومه، إلا أنه كان يطمح بالحصول على بلدة (دير حنا) وطالما طلبها من أبيه، ولكن الأب الذي كان يخشى من اتساع نفوذ أولاده جعل يصدهم واحداً بعد الآخر، ولما داهم (علي) (دير حنا) بخيله ليأخذها عنوة حشد ظاهر عساكره وهيأ مدافعه، وعرض قوته بشكل أذهلت علياً فعاد إلى صوابه، وألبس ولديه (الحسن والحسين) البياض ووضع في عنق كل منهما محرمة بيضاء وأرسلهما إلى جدهما ليطلبا العفو له.

ولما أقبلا عليه، ترجلا سريعاً إجلالاً له، فمنعهما ثم تقدم فعانقهما وقبلهما وقال لهما: "لقد غلبني أبو كما بكما". ثم أو لم (ظاهر) وليمة كبرى.. أكل منها الجميع.. وعاد إليهم الصفاء والسرور.

الدولة العثمانية تتآمر عليه

أخذ الولاة المحيطون ببلاد ظاهر يتوجسون خيفة منه ويكتبون للباب العالي في استنبول، حتى جاءت الأوامر لظاهر تأمره برفع يده عن (صيدا).

فانزعج بذلك أيما انزعاج، وأرسل إلى أنصاره يستشيرهم، فأشاروا عليه بالحرب. واستعدوا لها والتقوا بالجيوش التي حشدت له من حلب والشام وطرابلس وغيرها من الولايات السورية، على مقربة من بحيرة (الحولة)، ودارت هناك رحى معركة هائلة أبلى فيها ابنه (علي) ورجاله أحسن البلاء حتى هزموهم وألقي الكثيرون منهم أنفسهم في مياه البحيرة وأعاد سلطته إلى (صيدا) وتطلع بالتوسع جنوباً إلى (يافا) وغزة والخليل والقدس.. فاستولى عليها وجعل ابن عمه (كريم أيوب) والياً عليها.

التحالف مع مصر

ولما كان ظاهر يخشى غضب السلطات العليا في استنبول أخذ يتطلع إلى حليف يستعين به أثناء الشدة فتطلع إلى (مصر) أول ما تطلع.. ثم حسن علاقاته مع (كاترينا) ملكة روسيا التي أخذت تدعمه بالسلاح والعتاد والأسطول.

الحملة المصرية على الشام

أعد (علي بك) حملة على الديار الشامية تعدادها عشرة آلاف رجل بقيادة مملوكه (محمد بك) ليطرد (عثمان باشا) من الشام.

وأردفه ظاهر العمر بثلاثة آلاف من عساكره أيضاً وسار الجند إلى أن عسكروا خارج المدينة، ثم جرت المعركة في سهل (داريا) وهزم جيش (عثمان) باشا وارتد إلى حمص.

لكن محمد بك رجع فجأة بجيشه إلى مصر دون معرفة الأسباب، وعادت عساكر ظاهر إلى بلادها وعاد عثمان باشا إلى دمشق ليتآمر من جديد على ظاهر ولكنه عاد فغلبهم على صيدا بمساعدة المراكب الروسية التي كانت تمد إليه يد العون من البحر.

الاستيلاء على بيروت

ولما كان النصر حليفه في المعارك السالفة أخذ يفكر بالاستيلاء على بيروت فأرسل إلى استنبول يطلب من الدولة أن تقره عليها فكتبت له بذلك في الوقت نفسه الذي كتبت فيه إلى خصومه تأمرهم بمقاومته، وعندما هاجمها (ظاهر) صمد فيها (أحمد الجزار) الذي كان قد وصل إلى بلاد الشام وأصبح والياً لبيروت من قبل الأمير (يوسف شهاب) ورد ظاهر عنها.

العودة إلى حصار بيروت

استعصى أحمد الجزار في بيروت، فاستعان الأمير (يوسف شهاب) بظاهر العمر وبمساعدة المراكب الروسية استسلمت المدينة وخضع الجزار وطلب مهلة ليسلمها، على أن يدعوه يخرج منها بأمواله سالماً، فكان له ذلك فخرج منها ملتجئاً إلى الشيخ (حسين تلحوق) الذي أرسله بدوره إلى ظاهر العمر في عكا بعد أن أخذ له الأمان وولاه على القدس ولكنه عاد فغدر وهرب إلى دمشق، ثم إلى استنبول.

الحملة على مصر، وبداية هزائم ظاهر

عندما هرب علي بك من مصر إلى عكا أقنع ظاهراً أن يعطيه من الأموال ما يكفيه ويجند له عسكراً تعود به لمنازلة (محمد أبو الذهب) فتحركت أطماع ظاهر فجند من أهل بلاده ما يناهز (30) ألف رجل بقيادة ولده الأكبر صليبي وساروا متجهين إلى مصر.

وفي الصالحية على الحدود المصرية التقوا بطلائع العساكر المصرية فقتل علي بك واستسلم من معه من الغلمان، في حين قاتل صليبي وفرسانه حتى هلكوا جميعاً لأنهم لم يستطيعوا الصمود أمام جيش مصر والقوات السلطانية.

وتابع الجيش المصري زحفه باتجاه الشمال فحاصر (يافا) مدة سبعة أشهر ثم استولى عليها وقتل واليها (كريم الأيوب).. ولم تجرؤ نجدة بقيادة علي الظاهر على الوصول إلى ساحة المعركة. بل بقوا في جهات قيسارية فيما كان عثمان الظاهر يثبط الهمم ويحذر جند أبيه من قتال أبي الذهب والجند السلطاني.

وتابع أبو الذهب زحفه باتجاه عكا فهرب ظاهر من عكا إلى هونين واحتمى بقلعتها وخرج أهل عكا إلى الجبال وهرب المسيحيون إلى (دير المخلص) في لبنان.

ولكن ابا الذهب سرعان ما مات في الثلاثين من أيار 1775م وعاد (الشيخ ظاهر) لحكم عكا من جديد.

حصار عكا من البحر ونهاية ظاهر

ولكن فرحة ظاهر لم تطل، إذ أوعزت الدولة إلى قبطان البحر (حسن باشا الجزائري) بالتوجه بأسطوله لحصار عكا. كما أمرت بعض ولاتها كمحمد باشا

العظم والي الشام.. ووالي أضنه وأحمد باشا الجزار محافظ السواحل بمساعدة الأسطول.

وفي الأول من آب عام 1775م أطل على عكا مركبان، ثم أخذت أعداد المراكب تزداد حتى بلغت 15 مركباً مسلحة أتم التسليح بالمدافع، وأخذ ظاهر يستعد للقتال ومنازلة الأسطول، وأخذت المدفعية تنطلق بكثافة باتجاه أبراج أسوار عكا فتهدمها. واشتد الخلاف بين ظاهر وابنه عثمان الذي كان يتراسل سراً مع (حسن باشا) قائد الأسطول، فكان ظاهر يأمر جنوده بضرب الأسطول وعثمان يمنعهم فوقع الجنود في حيرة من أمرهم، وأخذوا يوجهون مدافعهم إلى البحر بعيداً عن المراكب.

وخرج ظاهر هارباً بعياله باتجاه (قلعة هونين) ولما ابتعد عن عكا مسير ربع ساعة تذكر محظيته وزوجته الأخيرة (عائشة) فعاد ليأخذها فوجدها بطريقها إليه ولما حاول أن يردفها خلفه على الجواد لم يستطع لوهنه وضعفه فوقع عليها، وهناك عاجله (الدنكزلي) وأطلق عليه الرصاص فصاح وهو يتخبط بدمه "اللهم أحمدك لها شهادة لعرضي" وكان ذلك في 16 آب 1775.

وقد أشيع: أن (عثمان الظاهر) هو الذي أوعز إلى الدنكزلي بقتل أبيه.

تشتت الأسرة ومقتل علي الظاهر

تضاربت الأنباء بمصير أبناء ظاهر بعد مقتله، فمن قائل أن أحمد الجزار قد سجنهم في عكا وأخذ يخنق كل يوم عدداً منهم ويرميهم في البحر، ولم ينج منهم إلا من هرب واختبأ في البلاد بعيداً عن عيون رجال السلطة إلا أن (ميخائيل نقولا الصباغ) صاحب كتاب (تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني) يقول بأن حسن باشا لما عاد إلى استنبول برأس ظاهر وأمواله وإبراهيم الصباغ وأمواله ترك أولاد ظاهر وشأنهم متحصنين في قلاعهم وكذلك فعل أحمد الجزار إلا أنه كان يترقب الفرص للإيقاع بهم.

ولهذا بقي عثمان الظاهر وهو الابن الأكبر يتحصن في قلعة (شفا عمرو) ويعد نفسه وارث الأمر بعد أبيه، إلا أن أخاه علياً كان ينازعه على ذلك وكان علياً محبباً إلى الجميع لكرمه وبأسه وشجاعته وعقله وحزمه ولما عاد حسن باشا الجزائري إلى عكا 1776م ليعيد البلاد إلى لماعة السلطان، عزم عثمان على التقرب إليه، فكتب لأخوته يدعوهم للمجيء إلى عكا وهو يأمل من حسن

باشا أن يجعله مكان أبيه بعد أن يفتك بإخوته ولكن حسن باشا زج الجميع بالسجن ثم نقلهم معه إلى استنبول وهناك لقي عثمان حظوة وأصبح وزيرا (للبورصة) ثم انقطعت أخباره.

أما علي فقد حاصره حسن باشا في قلعته (دير حنا) وضيق عليه حتى كاد يأخذه ثم هرب من دير حنا وتحصن في قلعة صفد فتتبعه حسن باشا وحاصره فيها ولما طال عليه أمد الحصار، وتراخت عزائم أهل البلاد وانفضوا من حوله، حمل أمتعته على الجمال، وركب بولديه (الحسن) و(الحسين) وأهل بيته وأخذ يتنقل كالبدو الرحل من مكان إلى مكان في الديار الصفدية، والجزار يطارده ويؤلب الناس عليه، حتى بلغ البلاد الشامية وحط في نواحي جسر بنات يعقوب، فأرسل الجزار إلى محمد باشا العظم والي دمشق آنذاك يطلب منه القضاء على علي الظاهر.

وبمكيدة من (إبراهيم أظن) شيخ النور في تلك المنطقة استطاع محمد باشا القضاء على علي الظاهر وقتله.

إذ قام إبراهيم ورجاله بمداهمة علي الظاهر وفرسانه وهم نائمون وأعملوا فيهم السيف، وكان علي الظاهر نائماً في خيمته فهب وصاح بالنور: هذه خيانة يا كلاب، وقبل أن يأخذ سيفه عاجله إبراهيم أظن بالسيف على ذراعه فقطعها واستلم علي الظاهر عامود الخيمة وأخذ يحامي عن نفسه والدم يسيل من ذراعه، فقطع الأظن حبال الخيمة، وبذلك تمكنوا من الوثوب عليه وقطع رأسه.. وقد أخذ الرأس إلى استنبول وهناك تعرف عليه ولداه (الحسن والحسين) اللذان بكيا عندما رأيا أبيهما، وكان مميزاً كبير الشوارب ويسمى (بصاحب السبع شنبات) وفي استنبول نبغ ابنه (فاضل الصفدي) ابن (علي الظاهر) وأصبح شاعراً مرموقاً حفظ لنا التاريخ بعضاً من قصائده.

أما بقية أولاده فقد اختفوا في بلدان الديار الصفدية ولم يظهر منهم إلا (عباس) الذي أقام في الناصرة والتقى بنابليون بونابرت مؤملاً أن يحله محل والده وقد أحبه نابليون واصطحبه معه إلى باريس.

صفات ظاهر وأخلاقه

كان ظاهر أبيض اللون ممتلئ الوجه واسع العينين ذا فم صغير رقيق الشفتين وحواجبه طويلة مقرونة، وذا أنف معتدل، طويل الذراعين والأصابع

نحيف الجسم مربوع القامة متوسط الطول، خفيف الذقن والشوارب، أسود الشعر، ذا لحية مدورة، وكان حليماً إلا أنه كان شديد الانتقام، كما كان شديد الهيبة شريف النفس كثير الحياء، ولم يكن يرفع نظره إلى امرأة، ويكره الفساد وفعل القبيح. كذلك كان يكره الخمرة وشاربها، كما كان ذا فطنة وفراسة غريبتين، وكان غير شبره في الأكل والشرب، ولا يأكل غير دجاج ومرقة الفراخ.

وشربه الماء الصرف، أو يمزجه بقليل من السكر في بعض الأوقات.

وكان فارساً شجاعاً، لا يهاب الموت، شديد البأس، لين الكلام جرش الصوت فصيح النطق، ويحب الشعر والشعراء، وكان يقرأ ولكنه لا يحسن الكتابة.

وكان مجلسه وقوراً جليلاً، لا يجري فيه شيء من المجون وذكر النساء، وقد تزوج بست نساء، وتمتع بجاريتين، الأولى شركسية، والثانية كرجية وهي التي قتل بسببها.

ورزق بثمانية أولاد هم (صليبي) الذي قتل مع (علي بك) ثم (عثمان) العاق وأحمد وعلي وسعيد صالح وسعد الدين وعباس وهو الأخير، وكان جميع أولاده فصحاء شعراء، ولكل منهم قصائد جميلة يمدحون بها أباهم وما زالت بعض هذه القصائد محفوظة في صدور حفاظها وفي مظانها إلى اليوم.

أحفاد ظاهر العمر

ما يزال أعقاب ظاهر العمر يعيشون حتى هذه الأيام في الديار الصفدية، وفي المهاجر التي هاجروا إليها قبل نكبة فلسطين وبعدها، ففي الناصرة أحفاد (عباس)، وكذلك في الطيرة، وفي صفد الظواهره الذين يسمون أنفسهم الآن خطأً بالزواهرة. وفي عكا آل الصفدي من الزيادنة، وكذلك أعقاب الزيادنة في (الجش) و(الدامون) و(الجاعونة) واسمهم (آل دخل الله) وغيرهم. هذا بالإضافة إلى الذين استوطنوا منهم في دمشق كآل البارودي ومنهم الزعيم المعروف: (فخري بك البارودي) فهو من الزيادنة.

وفي الختام

تلك هي قصة ذلك المغامر الجريء، الذي استطاع بحنكته وشجاعته أن يهز السلطنة العثمانية هزاً عنيفاً، وأن يصنع له مملكة صغيرة ضمت فلسطين كلها إضافة إلى أجزاء من لبنان كصيدا وصور وبيروت، وجبل عامل، واربد وغيرها من نواحي الأردن.

واستطاع أن يسير بها سيرة طيبة فيمنع اللصوصية وقطع الطرق حتى كانت المرأة تسير في طول البلاد وعرضها فلا يجرؤ أحد على سؤالها، فقد حقق مستوى رائعاً من الطمأنينة والعدالة وحمى الأقليات وخاصة المسيحية منها وأن يستوزر من المسيحيين رجلين اثنين هما (يوسف القسيس) و(إبراهيم الصباغ) إلا أن هذا الأخير دمر كل ذلك العز وذلك السلطان ببخله لأنه كان يحمل نفسية تاجر لا نفسية وزير.. فقد أحصيت أموال ظاهر التي صادرتها السلطات العثمانية فكان ما وصل منها إلى الخزينة ثلاثة وثمانين ألف كيس، تساوي خمسة ملايين ليرة..

وكان حسن باشا لم يطلب منها إلا خمسين ألف قرش، خراج الولاية سبع سنوات وقد أشار الجميع على ظاهر بدفعها، إلا (إبراهيم الصباغ) الذي أبى الدفع لشخ نفسه وقصر نظره فجلب بذلك الدمار على نفسه أولاً، وكان سبباً لخراب بيت مولاه "فسبحان مالك الملك، يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء".. ورحم الله ظاهراً فقد كان فارساً أبيّ النفس عربي النجار بعيد الغور، وصل إلى الملك بجده وحنكته ودهائه وسجل صفحة رائعة في تاريخ بلاد الشام، سيتلوها الناس بفخر وإعجاب إلى أبد الآبدين.

❑■❑

■ المراجع

1-ميخائيل نيقولا الصباغ العكاوي: تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني حاكم عكا وبلاد صفد عني بنشره وتعليق حواشيه الخوري قسطنطين الباشا المخلصي.

2-فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة د. كمال اليازجي، الجزء الثاني 1959م

3-محمد كرد علي: خطط الشام، الطبعة الثانية 1971 دار العلم للملايين -بيروت.

4-محمود العابدي: صفد في التاريخ، عمان 1977م.

❑■❑■

الفهـرس

■□■□■



رقم الايداع في مكتبة الأسد - الوطنية

جذوع السنديان وعروق الأقحوان:.قراءات في الأدب العربي القديم/ خليل خلايلي – دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 2000- 95 ص؛ 24سم..

1- 928 خ ل ا ج   2- 810.8 خ ل ا ج

3- العنوان   4 – خلايلي

ع -2000/2/92   مكتبة الأسد

في هذه الدراسة قراءات نقدية تعتمد بشكل خاص الطريقة التقليدية في التقديم، وتتألف من قسمين يتضمن الأول مقالات عن شعراء وأدباء قدامى،ويتضمن الثاني مقالات عن الأدباء وشعراء معاصرين ومراجعات لبعض الكتب والمقالات وهي مقالات ذوقية تأثيرية، عرضت آراء عربية تراثية إضافة إلى آراء إيجابية عصرية.

ثمن النسخة ..١ل.س في القطر
١٢٥ ل.س في أقطار الوطن العربي

مطبعة اتحاد الكتاب العرب
دمشق